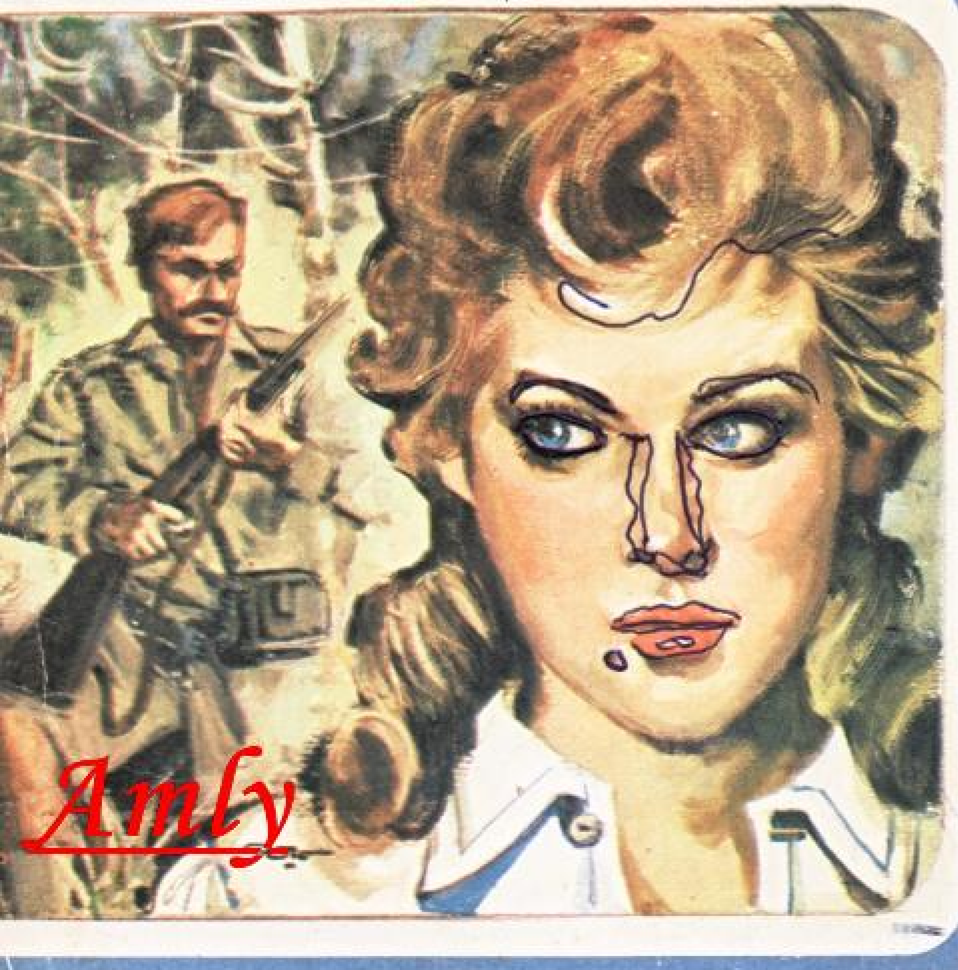
روايات الهلال

حاضرة الدنيا

أرنست هيمنجواى

REWAYAT AL — HILAL
NO . 450 — June 1986



روايات الهلال

REWAYAT AL - HILAL

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٤٥٠ - يونيه ١٩٨٦ - شوال ١٤٠٦

NO . 450 — June 1986

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : موسى عبد

الاشتراكات

قيمه الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م ع نقدا او بحوالة بريديه غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

سعار البيع فى البلاد العربية للاعداد العادية من سلسلة روايات الهلال فئة ٧٥ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ١٨٠٠ ق س . لبنان ١٨٠٠ ق ل . الاردن ٥٠٠ فلس . الكويت ٤٠٠ فلس . العراق ١٦٠٠ فلسا . السعودية ٧ ريالات . تونس ١٥٠٠ مليما . الخليج ١٢٠٠ فلسا . الصومال ١٣٠ بنى . لاجوس ١٢٠ بنى . عدن ٤٤ سنتا . لندن ١٥٠ سنتا . اثينا ٢٠٠ دراخمة . كندا ٥٠٠ سنت . البرازيل ٦٠٠ ... استراليا ٦٠٠ سنت . السودان ٢٥٠ ق سودانى . المعرب ١٥٠٠ فرنكا . غزة والضفة ٧٥ ... ١٠٠٠ ... البحر الشمالية ١٥ ريال . ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة

... العرب - القاهرة

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

حاضرة الدنيا
وقصص أخرى

بقلم

أرنست هيمنجواى

ترجمة

ماهر البطوطى

دار الهلال

مقـدمة

حياة همنجواى وفنه

بقلم المترجم

لعل أحدا من الروائيين الذين يكتبون بالانجليزية لم يحظ من الشهرة وسعة الانتشار فى العصر الحديث قدر ماحظى الـكاتب الأمريكى العظيم أرنست همنجواى • فبالاضافة الى المحصـول الوافر من الروايات والقصص التى تركها همنجواى وراءه عنـد مماته فى ١٩٦١ ، فان حياته تشكل جانبا مستقلا له من الأهمية ما لأدبه بالنسبة لقرائه ولدارسيه ، وهذا ماحدا بالنقاد الى الاهتمام بحياته والأحداث الكثيرة التى تزاحمت فيها قدر اهتمامهم بنصوصه الأدبية • وعلاوة على ذلك فان أدب همنجواى وكتاباته مغموسة كلها بدم الحياة التى عاشها ، فهو يستمد أدبه من تجاريب حياته ، وتدفعه هذه الحياة الى تطوير أدبه ومزجه بتجـاربه وقد دفعت الحياة الغريبة التى عاشها هذا الكاتب العظيم بعض النقـاد الى الحديث عن الرغبة فى الموت التى تتحكم فى لاوعى همنجـواى وأعماله ، وطبقوها على انغماسه الغريب فى الحروب والمعـارك وفى رحلات الصيد الخطرة ومصارعات الثيران الدموية • وقالوا أيضا أن همنجواى كان يريد قهر الخوف من الموت ولذلك لم يكن

يحب انتظار الموت بل يبحث عنه فى مكمنه .

وقد ابتكر همنجواى أسلوبا فريداً فى الكتابة ، يعتمـد على التخلص من المحسنات البديعية والتزويقات اللفظيـة والأطنـاب ويتجه الى طريقة التواضع فى التعبير Understatement . والأسلوب البرقى الذى يحاول إيصال التجربة الى القارىء عن طريق التركيز والمباشرة . وبالاضافة الى ظهور همنجواى بهذه الطريقة فى بناء لغته وفى بناء رواياته ، فان له رؤيا خاصة فى الحياة وفى الفن ، اجتهد أن يوصلها إلى قرائه من خلال قصصه ورواياته .

حياته وأعماله الأدبية :

ولد أرنست ميلر همنجواى ، مغامر عصره ، فى يوم ٢١ يوليو ١٨٩٩ ، فى مدينة يطلق عليها عادة اسم عاصمة الطبقة الوسـطى وهى « أوك بارك » من ضواحى شيكاغو . وكانت أمه من النساء ذوات النشاط الدينى الفعال ، شغلت وقت فراغها بالعزف فى الكنائس وفى المحافل الدينية . أما أبوه فهو الدكتور كلارنس ادموندز همنجواى ، وكان طبيبا محليا معروفا ، يفضل الذهاب للقنص وصيد السمك فى منزل العائلة الصيفى بجـانب خليج « هورتون » على الاشتغال بمهنته وعكف والده منذ صغره على تلقينه فنون الهوايات التى شغف بها هو نفسه ، فأهداه فى عيد ميلاده الثالث قصبة للصيد ، كما كان يعلمه فنون الرماية منذ كان فى المهد صبيا . ومما يروى عنه أنه اشترك وهو فى هذه السن فى الاستعراض العسكرى فى المدينة ، وسار وقد علق مسدس جده

الى جانبه وهو يختال وسط الجنود فى مشية عسكرية صارمة . ولكن والدته لم تكن راضية عن تلك التنشئة المبكرة ، وكانت تعد لابنها مشروعات مخالفة بالنسبة لمستقبله ، مما جعلها تعارض والده على طول الخط وتسخط على مايفعله مع ابنهما .. ويبـدو أن همنجواى لم يغفر لها بعد ذلك هذا الموقف اطلاقا ، كمـا يبدو أن ضيقه منها قد انعكس فى كل ما كان يـكتبه ويخلقـه من الشخصيات النسائية فى رواياته وقصصه .

وفى العاشرة من عمره ، أهداه والده بندقية ، وأهدته والدته آلة شيللو للعزف ، ولكنه أوضح بعد ذلك أنه لم يكن يميل لعزف الموسيقى ، وكان يهرب من دروس العزف ليصـطاد السمك ، وكان من نتيجـة هـذا الشد والجذب للصبى بين عالم والده وعـالم والدته أن أصـبح همنجـواى شـابا عاكفا على التفكير ، شديد الحساسية فى نفس الوقت . وقد قال مرة بعد ذلك عن أيام حياته الأولى : « ان أفضل مدرسة للكاتب هى طفـولة شقية » وقد تسببت هذه الأيام فى اصابته ببعض «التهتهة الخفيفة» فى كلامه ، لازمته طوال حياته .

وتلقى همنجواى تعليمه فى مدرسة « أوك بارك » ، حيث التحق بفريق كرة القدم بها . وفيها ظهر ميله للكتابة لأول مرة ، فكان يكتب بعض القصص القصيرة على الآلة الكاتبة ، عن تجاربه فى الصيد وعن الهنود الحمر ، وينشرها فى المجـلة الأدبيـة للمدرسة . وقد اشتغل وقت فراغه فى هذه الأيام والتحق بمدرسة لتعليم الملاكمة .

وبعد أن حصل على شهادته الثانوية من المدرسة عام ١٩١٧ ، كانت الولايات المتحدة قد دخلت الحرب العالمية الأولى التى اندلعت نيرانها منذ سنوات ثلاث فى أوروبا ، وهجر همنجواى كل مشروعاته بشأن الجامعة وبشأن المستقبل وتطوع فى الجيش ، ولكنه رسب فى الكشف الطبى بسبب عيب كان قد أصاب عينه فى إحدى مباريات الملاكمة . وفشلت محاولات همنجواى فى الالتحاق بأى سلاح من أسلحة الجيش ، وبعدها نجحت مجموعة من الأكاذيب ونقص فى الموظفين ابان الحرب ونفوذ أحد أعمامه فى حصوله على عمل فى صحيفة « كانساس سيتى ستار » التى كانت تعتبر أيامها أكبر مدرسة للصحافة فى الغرب الأمريكى . وقد تعلم فيها كيف يقص الخبر بأسلوب الصحيفة المعروف عنها : الأحدوثة المباشرة المقتضبة والفقرات القصيرة واللغة القوية . وقد قال همنجواى بعد ذلك عن هذه الفترة من حياته أنه قد تعلم فى هذه الشهور عن الكتابة وعن الصحافة أكثر مما تعلمه فى أى فترة أخرى من فترات حياته . وبعدها قرأ عن حاجة الصليب الأحمر العاجلة لمتطوعين للعمل على الجبهة الايطالية ، فتقدم لهذا العمل وقبل فيه فى أبريل ١٩١٨ كسائق لعربة اسعاف ، وكان أصغر المتطوعين سنا فلم يكن يتجاوز التاسعة عشرة من عمره . وارتحل من نيويورك إلى باريس عن طريق البحر ثم أرسلوا به إلى ميلان حيث عمل فى خط النار . وبعد أسبوع من الأحداث المثيرة ، أصابته قنبلة من مدفع مورتار نمسوى حين كان يحاول إنقاذ أحد

الضباط الايطاليين الجرحى ، وأطاحت بطاسة ركبته وجرحته فى رأسه . وفى مستشفى « ماجيورى » بميلان ، أجروا له سلسلة من العمليات أخرجوا بها ٢٢٧ شظية من ساقه . ولم يخرجوا كل الشظايا رغم ذلك ، فقد أجروا له عملية أخرى عام ١٩٥٩ أخرجوا بها من ساقه شظية أخرى استقرت فيها منذ ذلك الوقت . وفى مستشفى ميلان تعرف على ممرضة انجليزية حسناء من ممرضات الصليب الأحمر عقد معها علاقة عاطفية ألهمته فيما بعد حبكة روايته المشهورة « وداع للسلاح » . وقد طاف همنجواى بعد شفائه بصفوف القتال على الجبهة ايطالية مرتديا سترة عسكرية أمريكية ليبعث الحماس فى قلوب المحاربين ويقص عليهم قصة بطولته فى الحرب وكان نتيجة هذا أن أنعمت عليه السلطات الايطالية بالميدالية الفضية للشجاعة العسكرية ووسام الاستحقاق الحربى .

وعاد همنجواى فى ٢١ يناير ١٩١٩ إلى نيويورك واستقبل فيها استقبال الفاتحين ، فقد كان من أوائل العائدين الذين اشتركوا فى الحرب العالمية الأولى من الأمريكيين . ولكن جو بلدته « أوك بارك » بدا له خانقا قاتلا ، خاصة الآن بعد أن ذاق طعم الحرية والاثارة فدفعه ذلك الى الاستقلال بحياته عن والديه ، وعاش وحده فى شيكاغو بعد أن حصل على عمل يقيم به أوده عن طريق كتابة بعض القطع الصحفية لجريدتى « تورنتو ديلى ستار » « وتورنتو ستار ويكلى » . وكان يقسم وقت فراغه مابين صالة

الألعاب الرياضية ، والتمرس على فنون الكتابة وفى أثناء رحلة له إلى « ميتشجان » فى هذا الوقت ، تعرف على فتاة أمريكية ذات موهبة فى العزف على البيانو تدعى « هادلى ريتشاردسون » تزوجها أخيرا فى سبتمبر ١٩٢١ • واقترح همنجواى على أصحاب الصحيفتين اللتين يعمل فيهما أن يعينوه مراسلا لهما فى باريس ، حيث يوافيهم بمقالاته وقصصه من هناك ، ووافقوا على ذلك • وحمله صديقه شرود أندرسون ، بخطابات توصية الى معارفه الأدبيين فى باريس أمثال جرترودشتاين وعزرا باوند ، وتعد سنواته الأولى هذه فى باريس من أخصب أيام عمره ، قضاها طوافا فى البلاد والمدن الأوروبية ، يعقد الصداقات مع شخصيات الأدب والفن المشهورين وفى باريس تعلم همنجواى التمييز بين الأصيل والمزيف ، بين العبقرية والتصنع ، وتعلم كما قال بنفسه « كيف يكتب القصص بالتطلع الى اللوحات » فى متحف اللوكسمبرج فى باريس ، وعندما ألمح له الرسام بيكاسو عن مصارعات الثيران فى مدريد ، صمم همنجواى على خوض هذه التجارب الفريدة ، فشد رحاله على الفور هو وزوجته الى أسبانيا حيث شهد أول عرض لمصارعات الثيران فى حياته ، وقضى بها عدة أسابيع قبل أن يعود الى باريس • وكانت هذه نقطة البداية فى حبه العريض للبلاد الأسبانية ولمصارعة الثيران الذى لازمه طوال حياته ولم يكد يخلو كتاب من كتبه من أى منهما •

وبعد ذلك أبرقت له الصحيفة بالتوجه الى ايطاليا لتغطية أخبار المؤتمر الاقتصادى فى « جنوه » ، وبعدها طار الى القسطنطينية ليغطى أحداث الحرب التركية اليونانية التى استعر آوارها فى تلك الأثناء • وفى القسطنطينية شهد فظائع انسحاب الجيش اليونانى من المدن التركية وتقدم الجيوش التركية للاستيلاء على هذه المدن وقد ألهمه هذا الانسحاب الوصف الذى ورد بعد ذلك فى مشهد انسحاب من « كابريتو » فى « وداع للسلاح » •• وبعد عودته من تلك المهمة بقليل طار إلى لوزان لتغطية مؤتمر السلام هناك • وهكذا تحقق حلم همنجواى بأن أصبح مراسلا أمريكيا جوالا فى البلاد الأوروبية •

واستدعى همنجواى زوجته هادلى لتلحق به فى لوزان • وفى الطريق وقعت لها حادثة مفجعة ، اذ فقدت جميع مخطوطات القصص التى كان زوجها قد كتبها طوال السنوات الأربع السابقة ، وكانت قد وضعتها كلها فى حقيبة حملتها معها إليه • وقد آثر هذا الفقدان الأدبى فى همنجواى فترة طويلة من حياته ولم ينسه مطلقا • وطار همنجواى مرة أخرى الى ألمانيا لكتابة تحقيق صحفى عن إعادة احتلال « الروهر » بالقوات الألمانية • وفى باريس ، أخرج همنجواى كتابه الأول ، مجموعة من القصص والقصائد بعنوان « ثلاث قصص قصيرة وعشر قصائد Three short stories and ten Poems

كما كان يزيد من دخله بالمراهنة على سباق الخيل الذى برع فيه وربح من ورائه الكثير من المال • ولكنه اضطر إلى العودة

لجريدتي « ستار » و « ستار ويكلي » حين أشرفت زوجتـه على وضع طفلها جون وأصرت على أن تتم الولادة في موطنها بالولايات المتحدة • وبعدها بفترة قضاها في جو من الضيق «والاقليمية»؛ استقال من العمل ورحل هو وزوجته وطفله إلى باريس حيث خلع عنه أخيرا معوقات الكتابة ونزل إلى الساحة ليحارب معركته في سبيل الجودة والظهور كمؤلف له قيمته وأصالته • وكانت باريس أيامها تموج بالكتاب والفنانين الذين يأتون بكل مسـتحدث مستطرف ، يغرقون همومهم في الجنس والخمر والسهر طوال الليل • وقد أسمتهم جرترود شتاين بالجيل الضائع ، ولكن همنجواي كان يمثل بينهم شخصا مختلفا ، فقد أضفت عليه جديته بشأن عمله في الكتابة وتجاربه في الحرب صفة خاصة من النضج وانضم في هذا الوقت الى الجماعة التي كانت تلتقي في مكتبة شكسبير التي تملكها شابة أمريكية تدعى « سيلفيا بيتش » في الحي اللاتيني ؛ وتعرف هناك بالمشهورين من أمثال جيمس جويس وجون دوس باسوس وارشبالد ماكليش ، بالاضافة إلى جرترود شتاين وعزرا باوند • وكانوا يعقدون الندوات التي يناقشون فيها مسائل الفن والأدب وقضاياهما •

ومرت بهمنجواي فترة قاتمة في أيامه تلك في باريس ، فكانت المجلات ترفض قصصه الواحدة بعد الأخرى ، ولم يكن يجد ما يقيم أوده هو وزوجته • ولم يفت هذا من عضده ، بل لم يعوقه عن الاستمتاع بكل ما كان يستمتع به من صيد ومن سباق

الخيل وسباق الدراجات ونجح أخيرا بعد ذلك في نشر كتابه الثاني وهو مجموعة من القصص القصيرة ظهرت تحت عنوان « في أيامنا » In our Time

وقد صمم همنجواي على أن ينقل تجربته في الهيام بمصارعة الثيران إلى رفاقه ، فخرجوا جميعا في عام ١٩٢٥ إلى أسبانيا لحضور مهرجان « سان فرمين » في بمبلونه ، وهو تقليد اتبعه بعد ذلك طوال حياته • وفي هذه المرة ، تعرفت الجماعة بفتاة انجليزية لعوب تدعى « ليدي داف توايسدن » وقع أحد أفراد الجماعة وهو « هارولد لويب » في غرامها وصار يشك في علاقتها بهمنجواي وبأفراد آخرين من الجماعة ، رغم أنها كانت مخطوبة لواحد من الأثرياء الأمريكيين ولا تخفي علاقاتها بكثير من الأفراد الآخرين • وطوال أيام هذا المهرجان ومباريات مصارعة الثيران التي شهدتها الجماعة ، كان أرنست يشحذ حواسه كلها لالتقاط دقائق الأحداث التي تدور من حوله • وقد دون كل هذا بعد ذلك في روايته « وتشرق الشمس ثانية » The sun also rises

وقد بدأها في يوم عيد ميلاده السادس والعشرين ، وكتب فيها في بلنسية وفي مدريد ثم في باريس وأتمها في مدى ستة أسابيع • وفي الفترة التي كان ينقح فيها الرواية ؛ نشرت روايته الأولى المسماة « سيول الربيع » The torrents of spring ولكنها لم تلق حماسا من القراء ولا من النقاد •

وكانت حياته الزوجية مع هادلي قد انتابها الفتور ، كما شابها

كثير من الشجارات التى نشأت من غيرة هادلى من علاقة أرنست بالمرضة الانجليزية التى تعرف عليها فى مستشفى ميلان ، والتى استمرت بعد ذلك عن طريق الخطابات ، وعلاقته المستحدثة مع «ليدى داف توايسدن » وانتهى به الأمر أن انفصل عن هادى ، واتخذ له مسكنا يقيم فيه وحده ، ثم انتقل إلى نيويورك مع امرأة من معارفه مال اليها تدعى « بولين بفيفر » الكاتبة الصحفية بمجلة « فوج » النسائية • واستمر همنجواى يعمل فى نيويورك فى تنقيح مخطوطة « وتشرق الشمس ثانية » ، ودفع بها أخيرا إلى الناشر وظهـرت فى أكتوبر ١٩٢٦ ونالت الرواية نجاحا ساحقا فور ظهـورها ، وأرست دعامة همنجواى كواحد من أعلام الأدب الأمريكى البارزين وجذب انتباه الجماهير ككاتب وكانسان • وقد دفع هذا النجاح الناشر « سكريبنر » الى اخراج كتاب قصص قصيرة له به أربع قصص جديدة علاوة على مختارات من قصصه القصيرة التى نشرت سابقا ، تحت عنوان « رجال بلا نساء » Men without women

وحصل همنجواى على الطلاق من هادلى فى عام ١٩٢٧ ، وتزوج بعدها حبيبته الجديدة بولين • وقد اضطر لاتمام هذا الزواج أن تحول من المذهب البروتستانتى الى الكاثوليكية لأن بولين كانت من هذا المذهب • وبدأ بعد ذلك مباشرة فى الاعداد لأقـرب المشروعات حبا لفؤاده ، وهو كتابة رواية عن تجاربه فى الحـرب العالمية الأولى •

ومرة أخرى ، اضطر همنجواى إلى العودة إلى الولايات المتحدة حين أشرفت زوجته الجديدة على الوضع ، فأقام فترة فى « كى وست » ، ثم نزح الى « كانساس سيتى » حيث دخلت بولين المستشفى • ومرت الزوجة بتجربة عصـيبة إذ تعسرت الولادة وأشرفت على الموت ، واضطروا الى اجراء عملية قيصرية لاخراج الوليد الجديد من بطنها ، وسموه « باتريك » • ومرت بهمنجواى تجربة أعصب وهو ينتظر خارج المستشفى نتيجة العملية • وقد ظهرت هذه التجربة بعد ذلك فى تفصيل شديد فى الرواية الجديدة التى كان يكتبها آنذاك « وداع للسلاح » A farewell to arms كذلك ألمت بهمنجواى أزمة روحية فى هذه الفترة نتيجة لوصول الأنباء إليه بانتحار أبيه الطبيب بمسدس الجد الذى كان أرنست يحمله وهو طفل ويسير به مختالا فى الاستعراض العسكرى فى « أوك بارك » •

وتوطدت أقدام همنجواى فى عالم الأدب بنجـاح « وداع للسلاح » التى نشرت فى سبتمبر ١٩٢٩ • وعكف بعدها على كتابة بعض قصصه القصيرة ، أشهرها قصص القتلة The killers « اليوم جمعة » To day is friday الهنديان The two Indians ثم قضى الصيف التالى فى جولة فى أسبانيا فى ركب المتـادور المشهور سيدنى فرانكلين ، خرج منها آخر الأمر بكتاب شـامل مشهور عن مصارعة الثيران ، وكان بذلك أول كاتب يقـدم هذا الفن العظيم للعالم انجلوسكسونى ، بكتابه الذى يشـبه دائرة معارف عن مصارعة الثيران « موت فى الأصيل » Death is the Afternoon

وقضى همنجواى فترة طويلةفى منزله فى « كى وست » ، وابتاع يختا للصيد أسماه « بيلار » استخدمه فى رحلات صيد ناجحة • وكان يبحث عن آفاق جديد يبسط عليها ظل خياله ، ووجد أنه لن يجد متعة بعد ذلك فى مناطق أسبانيا وباريس الا بعد أن يجددها بمشاهدة الجانب الآخر من العالم • وعلى هـذا ففى أواخر عام ١٩٣٣ ، شد رحاله هو وزوجته وأحد أصـدقائه الى أفريقيا ، مصطحبين مرشدا أصبح بعدها صديقا حميمالهمنجواى هو « فيليب برسيفال » • وطاف همنجواى فى هذه الرحلةبمباسة وكينيا وأوغندا ، ومر بتجارب هامة مركزة فى كيفية صيد الأسود والنمور والفيلة وخاصة وحيد القرن • وعاد الى «كى وست » فى ربيع ١٩٤٣ وذهنه محمل بذكرياته الافريقية • ومرت به هناك تجربة صيد فريدة اختزنها فى ذاكرته إلى أن حانت لحظة إخراجها فى عمل فنى متكامل • ففى أثناء جولة له على قاربه بيلار للصيد ، اشتبكت قصبته بسمكة تونة ضخمة قال من شاهدها آنها تربو على الألف رطل ، وظل يطاردها قرابة يوم كامل وهو يجاهد ألا تفلت منه • وتمكن أخيرا من صيدها وجرها إلى جانب قاربه • ولكن بعد أن بذل هذا المجهود الجبار الذى يفوق الطاقة فى صيدها ، هجمت عليها أسماك القرش ونهشت لحمها وتركت له سلسلتها الفقـرية ورأسها تسبح إلى جانب القارب • وكان يشيع النشاط والمغامرات فى حياته برحلات صيد من هذا النوع وبرحلات سريعة بقـاربه عبر الخليج إلى كوبا • ولكن القدر كان يخبىء له مغامرة جديدة

من نوع المخاطرة التى كادت تودى بحياته فى الحرب العـالمية الأولى • ففى يوليو من عام ١٩٣٦ ، هرب أحد الضباط الأسبان السابقين من منفاه فى جزيرة الكناريس ونجح فى تدبير انقـلاب ضد حكومة الجمهوريين فى مدريد ، وانحاز تسعون فى المائة من الجيش الأسبانى إلى جانبه مما أدى إلى اندلاع نيران حرب أهلية مدمرة فى تلك البلاد التى أحبها همنجواى كل الحب • وقد ساندت القوى الفاشستية فى كل من إيطاليا وألمانيا الضابط فرانكو ، بينما انضمت الى الجمهوريين صـفوف الشيوعيين والفوضـويين والاشتراكيين والنقابيين وغيرها من الجوانب الثورية • وانحـاز همنجواى إلى جانب الجمهوريين ، وطاف فى كل مكان فى أمريكا يحاول جمع التبرعات لمساعدتهم وامدادهم بما يحتاجونه من سلاح ثم سـافر هو بنفسـه الى مدريد ليغطى أنبـاء الحرب الأهليـة وليكون الى جانب أصدقائه الجمهوريين وقبل أن يطير للجبهة أعد رواية جديدة للنشر وأسماها « الغنى والاملاق To Have and Have not » وخاض همنجواى فى طريقه إلى ميدان القتال أهوالا عجيبة وكاد أن يقتل عديدا من المرات • وكان يعود أحيانا الى الولايات المتحدة لجمع مزيد من الأموال لمساعدة الجمهوريين ثم يطير ثانية الى ميدان القتال • وفى احدى المرات التى عاد فيها الى الولايات المتحدة نشر مسرحية كان يعمل فيها فى مدريد وهى « الطابور الخامس The fifth column » وكانت هذه المسرحية الوحيدة التى كتبها همنجواى هى العمل الوحيد الذى

أجمع كل النقاد على فشله التام •

وحرص همنجواى على أن يكون فى وسط المعارك التى تدور بين الفاشيين والجمهوريين ، وكم من مرة تحطم زجاج نافذة الغرفة التى يقيم فيها نتيجة قنبلة تقع على مقربة منه ، ولكنه كان يتحمل كل ذلك ويختزن فى ذهنه تجارب الأهوال التى يراها والتى اقترنت بهذه الحرب البشعة التى مات فى العام الأول لها ما يزيد على نصف مليون أسبانى • وتعرف فى مدريد على مراسلة صحفية شقراء صغيرة السن تدعى مارتا جلهورن كانت قد برزت فى عملها ونجحت فيه نجاحا ملحوظا وتوثقت عرى المودة بينهما فى هذه الفترة بحيث لم يكونا يكادان يفترقان •

ولما انتهت الحرب الأهلية الأسبانية باندحار الجمهوريين ودخول فرانكو مدريد فى مارس ١٩٣٩ ، عاد همنجواى الى بلاده واستقر فى منطقة جديدة اكتشف فيها أحسن مناطق الانزلاق على الجليد وهى منطقة « صان فالى » وهناك ، كتب ٢٤ فصلا من فصول رواية جديدة أعدها عن الحرب الأهلية الأسبانية • وكانت رواية « لمن تدق الأجراس » For whom the Bell Tolls أحسن وأشهر رواية كتبها همنجواى باعتراف النقاد • وقد قال عنها مؤلفها : « إننى لم أضع فيها الحرب الأهلية فحسب ، بل وضعت فيها كل شىء تعلمته عن أسبانيا طوال ثمانية عشر عاما » • واهدى همنجواى الرواية التى ظهرت فى أكتوبر ١٩٤٠ الى مارتا جلهورن ، وكان قد اتفق معها على الزواج بعد أن وافقت بولين على

الطلاق منه بشرط أن تحتفظ بولديها منه وبمنزلهما فى « كى وست » • ولما وافق همنجواى على هذه الشروط ، قام بشراء ضيعة له فى كوبا بقرية تدعى « سان فرانسيسكو دى بولا » ، وسمى الضيعة « الفينكا فيخيا » « أى الضيعة الخارجية » وتتكون من منزلين وبرج للمراقبة تحيط بهم حديقة واسعة بها حوض سباحة وملعب للتنس • وقد جعل من كوبا مقرا لقاربه البيلار •

وبعد طلاق همنجواى من بولين بسبعة عشر يوما ، تزوج مارتا ، وكان فى الثانية والأربعين من عمره بينما كانت مارتا فى الثامنة والعشرين • وطارا بعد الزواج الى الشرق الأقصى ليغطيا أنباء الحرب اليابانية الصينية لصالح صحيفتين مختلفتين • وكانت رحلة شاقة إلى مناطق القتال • وقضيا أربعة شهور فى الصين ، لمس همنجواى فيها مدى الصدع الذى حدث بين شيانج كاى شيك وبين الشيوعيين الصينيين وحذر من نتائجه المرتقبة على مستقبل الصين • وبعد شهر العسل هذا الذى استطال الى أربعة شهور وسط جبهة القتال ، عاد العروسان إلى ضيعة الزوج فى كوبا حيث اعتزم همنجواى العزوف عن خوض غمار الحروب بعد ذلك ، رغم أن بلاده كانت قد دخلتها رسميا آنذاك بعد حادثة بيرل هاربور المشهورة •

وكان هذا هو الوقت الذى بدأ همنجواى فيه يطلق لحيته التى اشتهر بها ، وكان يزعم أنه اضطر الى ذلك من جراء مرض جلدى أصاب وجهه وجعل من حلاقة ذقنه أمرا عسيرا •

وبدأت زوجته الجديدة تشعر بالملل ، ووجدت أن مثل هـذا الزواج لن يتفق مع طموحها الواسع في التقدم في عملها الصحفي ، فكان أن طارت بمفردها إلى أوروبا لتغطي أنباء الحرب العـالمية لصالح مجلة كولير • وبعد سفرها بستة أشهر طار همنجواي الى خطوط القتال في أوروبا ليوافي مجلة كولير هو الآخر بالتحقيقات الصحفية عن الحرب ولكنه لم يكن مع زوجته ، بل قضى معظم وقته مع مراسلة صحفية تدعى « ماري ولش » وقد اشترك همنجواي في القتال فعلا على الجبهة الفرنسية حين كان الحلفاء يعدون العدة للغزو النورماندي ، وكون فرقة من الفدائيين ترأسهم وكانوا ينادونه بلقب « بابا همنجواي » ، وقد شاعت هذه التسمية بعد ذلك بين أصدقائه ومحبيه • وكانت هذه الفرقة هي أول جنود من صـف الحلفاء تدخل باريس ، وكان أول شيء فعله همنجواي بعد دخوله العاصمة الفرنسية أن حرر فندقه الأثير « الريتز » ، وعب من خموره المعتقة • وقد حوكم همنجواي أمام محكمة عسـكرية بعد ذلك لتخطيه حدود قوانين المراسلين الصحفيين باشتراكه الفعلي في القتال ولكن لم يتقدم أحد للشهادة على تلك الجريمة ، فسقطت عنه ، كما منح ميدالية برونزية تقديرا لشجاعته •

وبعد الحرب ، وفي أكتوبر ١٩٤٥ ، حصلت مارتا جلهورن على الطلاق من همنجواي ، لم يعارض في منحها اياه : وعاد إلى فينكا فيخيا بكوبا مع « ماري ولش » : التي كان يدعوها دوما « مس ماري » ، وقد تزوجها همنجواي أخيرا في هافانا في ١٩٤٦ ، وكانت

مس ماري بهذا رابع زيجة له ، وأحبها إلى قلبه باعترافه فيما بعد وقد عملت زوجته الجديدة على ارضائه كلما سنحت لها الفرصـة لذلك ، فكانت تشاركه حبه للصيد والرحلات وشرب النبيذ ، وتهتم بأدويته وأدواته ، كما كانت مدبرة منزل وطاهية ماهرة في نفس الوقت •• وقضى همنجواي عدة سنوات من الاستقرار في فينكا فيخيا كتب خلالها كتابه عن الحرب الذي سـماه « عبر النهر وبين الأشجار Across the river and into the trees وقد هاجمه النقاد بعنف على هذه الرواية التي جاءت مختلفة اختلافا بينا عن أسلوب همنجواي المعتاد في كتبه • وقد آثار النقد الجارح الذي كتبه النقاد على هذه الرواية حفيظة همنجواي وشرع في الاعداد لعمل كبير يتحداهم به • وظهر هذا العمل بعد ذلك ممـا كان قد اختزنه في ذهنه من تجارب حدثت في الصيد على شاطيء كوبا وغيره • وكانت رواية « العجوز والبحر » The Old man and the Sea التي نجحت على الفور وقابلها النقـاد بترحاب عظيم ، وقد نالت الرواية جائزة بوليتزر عام ١٩٥٣ وجائزة نوبل للاداب عام ١٩٥٤ ، وجعلت من همنجواي أعظم كاتب أمريكي في زمانه •

ولكن انهماك همنجواي في العمل والكتابة ابان هذه السنوات لم يمنعه من القيام بالرحلات التي يحبها ، فجال في ايطاليا ، وعاد ثانية إلى أسبانيا بعد أن سمحت له السلطات بذلك ، وشـهد مصارعات الثيران مرة أخرى وطاف بمسارح شبابه فيها وفي الأماكن

التى كتب عنها أحداث روايته « وتشرق الشمس ثانية » • وحين ثانية الى أفريقيا ، فاصطحب مس مارى فى رحلة صيد الى أفريقيا مولتها مجلة « لوك » • وكانت الرحلة موفقة فى قسمها الأول ، فطاف همنجواى ومارى فى أدغال كينيا وتوجها مرة إلى الكونغو • ولكن حدث أن سقطت بهم الطائرة التى كانت تقلهم فوق شلالات « مورشيون » ونجا من فيها بأعجوبة • وقضوا ليلتهم بين الوحوش الهائمة إلى أن أنقذهم قارب الاستطلاع الذى يجوب هذه المنطقة • وفى هذه الأثناء ، طيرت وكالات الأنباء خبر فقدان همنجواى ، وصدرت الصحف وفيها نعى الكاتب الكبير وهز الواثقون من وجود رغبة خفية فى الموت لدى همنجواى رءوسهم فى عرفان •

وجاءت طائرة لتقل آل همنجواى بعد الحادثة الى « عنتيبى » ولكن سوء الحظ لازمهم ، فاصطدمت بالأرض وشبت فيها النيران وقد سببت هذه الحادثة إصابات خطيرة لهمنجواى فى الكليتين والكبد وحروقا فى الرأس والساعدين والساقين لازمته آثارها بقية حياته •

وعاد همنجواى بعد رحلته المشئومة تلك الى « فينكا فيخيا » مع مس مارى • ووصلته الأنباء بعدها من « استكهلم » بقرار الأكاديمية السويدية منحه جائزة نوبل للاداب لعام ١٩٥٥ : لسيطرته القوية على أسلوب فن الرواية ، التى تبدت أخيرا فى « العجوز والبحر » • وقد قبل همنجواى الجائزة شاكرا وان اعتذر عن عدم

استطاعته الذهاب الى السويد لحضور حفل استلامها ، وأرسل خطابا ألقاه نيابة عنه هناك سفير الولايات المتحدة فى السويد •

وقد تسلم همنجواى مبلغ ٣٦ ألف دولار قيمة الجائزة ، ثم تعاقد مع « هوليوود » على تصوير فيلم عن القصة وحصل من ذلك على مبلغ ربع مليون دولار بالاضافة الى ثلث الأرباح عن حقوقه من الفيلم • وكان ذلك هو الفيلم الوحيد الذى اشترك همنجواى فى اعداده واختار كاتب السيناريو له وممثله أيضا • وفى عامى ١٩٥٩ و ١٩٦٠ طاف همنجواى مرة أخرى بأسبانيا إبان مواسم مصارعة الثيران فى ركب المتادور المشهور « أنطونيو أوردونييت » ، وشهد المباريات المميتة التى كان يعقدها مع المصارع « لويس ميجيل » فى منافسة دامية • وقد كتب همنجواى بعدها تحقيقا صحفيا عن هذه المباريات والمنافسات لمجلة « لايف » ، نشر تحت عنوان « الصيف الخطير » The dangerous summer • وقد لاحقته أسطورة الموت مرة أخرى وهو فى « مالقه » بأسبانيا ، اذ صدرت إشاعة قوية تفيد وفاته هناك • وكان كل مافعله همنجواى حين سمع تلك الاشاعة أن قال وهو يرفع كأسه ويشرب : « إن المرء يحيا فى أسبانيا ولا يموت فيها » •

وحين عاد همنجواى فى أواخر عام ١٩٦٠ إلى منزله بكيتشوم فى ولاية « ايداهو » ، بدأ الأصدقاء المقربون منه يلاحظون عليه تغيرا كبيرا • كان المرح والانطلاق قد زايلاه ، وبدأت تهاجمه

الشكوك والريب فى استمراره ككاتب وفى مستقبله فى مهنته ، كما بدأ يجد صعوبة وثقلا فى الكتابة • وسر ذلك أنه كان قد تعود أن يعيش على مستوى معين من القوة والنشاط والاقدام فى كل شيء ، فىممارسةالرياضة ، وفى الصيد ، وفى الكتابة وفى الشراب ، وفى الرحلات ، وفى كل أوجه الحياة ، فلما بدأت هذه القوة تضعف فيه ، فقد الثقة فى نفسه وفى فنه •

وخانته أعصابه أخيرا ، واختلطت عليه الحقيقة والوهم ، فبدأ يتصور أن السلطات تطارده بتهمة اغواء القصر ، وأن البوليس الفدرالى يتتبعه ليثبت عليه الجريمة ، كما كان يراقب البنك الذى يودع فيه أمواله ، وينتابه القلق حين يرى الموظفين يعملون هناك ليلا لايقانه أنهم مدفوعون من قبل البوليس الفدرالى لمراجعة حساباته لاثبات أنه تهرب من دفع الضرائب والقبض عليه وزجه فى السجن لذلك السبب • ولما تفاقمت حالته وكثر ترديده عزمه على أن يقتل نفسه بعد أن توهم عجزه عن الكتابة ، لم يستطع المقربون منه أن يتجاهلوا حقيقة ما أصابه ودفع الخوف زوجته وأصدقاءه إلى العمل ، فأدخلوه عيادة مايو May clinic تحت اسم مستعار لكى يعالج من الارهاق العصبى • ووضع هناك تحت اشراف مستمر ، وتلقى عدة جلسات من الصدمات الكهربائية ، ولكن كل ذلك لم يفده كثيرا ، فبعد أن خرج من العيادة وتفاءل الجميع بتحسن حالته ، فوجئت زوجته مارى صباح أحد الأيام بطلقة تنفجر فى الطابق السفلى ، فهرعت إلى أسفل لتجد

همنجواى وقد أطلق النار على رأسه من بندقيته وقد قالت مارى للصحفيين أن طلقة قد خرجت بطريق الخطأ بينما كان همنجواى ينظف البندقية فقتلته على الفور • ثم تجلت حقيقة ماحدث بعد ذلك فى وقائع كتاب « بابا همنجواى » الذى كتبه واحد من ألصق أصدقاء همنجواى به وهو « اد هوتشنر » ، وصف فيه ضمن وصفه الأحداث الأخيرة فى حياة همنجواى والمحاولات التى بذلها للانتحار باطلاق الرصاص على نفسه وبالقاء نفسه من الطائرة التى كانت تقله الى عيادة مايو ، إلى أن نجحت محاولته الأخيرة فقضى على نفسه فى النهاية •

وهكذا لاقى همنجواى الموت الذى طالما كتب عنه ودارت معظم رواياته وقصصه حوله •

حاضرة الدنيـا



حاضرة الدنيا

تزخر مدريد بفتيان يحملون اسم « باكو » ، وهو تصغير اسم « فرانسيسكو » • وثمة مزحة أسبانية تحكى أن أبا نزل فى مدريد ونشر اعلانا فى الأعمدة الخاصة بجريدة « الليبرال » يقول « الى باكو ، قابلنى فى فندق مونتانا ظهر يوم الثلاثاء • غفرت لك كل شيء » •• وبعدها ، تطلب الأمر استدعاء فرقة من قوات الشرطة لتفريق الثمانمائة شاب الذين حضروا استجابة للاعلان • أما « باكو » بطل قصتنا هذه ، الذى يعمل ساقيا فى خان « اللواركا » ، فلم يكن له أب ليغفر له ، كما أنه لم يرتكب مايغفره له الأب • له أختان تكبرانه سنا ، تعمل كلتاهما خادمة بالخان ، وقد عثرتا على هذا العمل بفضل إحدى خادمات الخان السابقات التى أتت من نفس بلدة الاختين وأثبتت جدارتها وأمانتها فأكسبت بذلك بلدتها وأهل بلدتها سمعة طيبة • وقد دفعت الأختان ثمن تذكرة السفر لشقيقهما الى مدريد ومهدتا له سبيل العمل ساقيا تحت التمرين • كان « باكو » من قرية من أعمال مقاطعة « اكستريمادورا » ، تسودها أحوال معيشة بدائية للغاية ،

ومنها ندرة الطعام والجهل بوسائل الراحة الحديثة ، وكان العمل فيها شاقا منذ بدأ يعى ماحوله من أشياء •

كان فتى حسن البنية ، ذا شعر فاحم السواد متموج إلى حد ما ، وبشرة تحسده عليها أختاه ، وابتسامة طويلة صافية • كان نشيطا يؤدى عمله بمهارة ، ودودا تجاه أختيه اللتين تتسمان بمظاهر الجمال والصراحة ، وقد أحب مدريد التى بدت له كعادته مكانا قصى المنال • وأحب عمله الذى بدا له غاية فى الجمال والرومانسية ، وهو يباشره تحت الأضواء البراقة فى ملابسه البيضاء الخاصة بالسهرة ، والطعام الوفير فى المطبخ •

كان هناك مايقرب من ثمان نزلاء الى اثنى عشر نازلا قد اعتادوا الاقامة فى الخان والأكل فى صالة الطعام ، ولكن «باكو» ــ وهو أصغر ثلاثة سقاة يخدمون على الموائد ــ لم يكن يشعر شعورا حقيقيا بأحد من الموجودين سوى مصارعى الثيران •

وكان عدد من مصارعى الثيران من الدرجة الثانية يعيشون فى ذلك الخان ، لأن موقعه فى « شارع خيرونيمو » كان مناسبا ، والطعام فيه ممتازا ، وأجر المبيت والأكل رخيصا • ومن المفيد لمصارع الثيران الحفاظ على المظاهر ، إذ لم يكن مظهر الثراء فليكن مظهر الاحترام على الأقل ، لأنه فى أسبانيا تعلو قيمة النسق والهيبة على قيمة الشجاعة فى نظر الناس ، ولذلك كان المصارعون ينزلون فى « اللواركا » حتى ينتهى آخر قرش يملكونه • وليس هناك مايثبت أن أى مصارع للثيران قد ترك « اللواركا » إلى أى

خان أفضل أو أكثر منه بذخا ، لأنه لا يمكن لمصارع ثيران من الدرجة الثانية أن يرتقى إلى الدرجة الأولى ، أما النزول الى مستوى أقل من « اللواركا » فكان مألوفا كثير الوقوع ، فقد كان بوسع أى امرىء ــ مادام يعمل فى أى شىء كان ــ أن ينزل فى « اللواركا » • ولم تكن فاتورة الحساب تقدم الى النزيل مالم يطلبها ، الى أن تدرك مديرةالخان أن الحالة ميئوس منها •

فى ذلك الوقت ، كان بالخان ثلاثة مصارعين ، واثنان من فرسان المصارعة البارعين ، وراشق سهام ممتاز • وكان «اللواركا» مكانا باذخا بالنسبة لفرسان المصارعة وراشقى السهام الوافدين من « اشبيلية » يبحثون عن سكن مع أسرهم خلال فصل الربيع ، إلا أن أجرهم كان كبيرا ، ولهم عمل ثابت مع مصارعين مثقلين بعقود عمل كثيرة خلال الموسم القادم • ولاشك أن دخل كل من هؤلاء الثلاثة « الملازمين » سيفوق دخل أى من المصارعين الثلاثة الآخرين • كان مصارع من المصارعين الثلاثة مريضا ويحاول اخفاء مرضه ، والآخر قد ولت أيام شهرته القصيرة ككل شىء مستحدث وكان ثالثهم جبانا •

وكان الجبان شجاعا يوما ما الى درجة غير عادية وماهرا للغاية ، الى أن أصابه قرن ثور قاس عنيف بجرح فى أسفل بطنه فى بداية موسمه الأول كمصارع كامل الأهلية ، وكان لايزال عالقا به بعض عاداته التى تعود إلى أيام نجاحه • كان مرحا الى حد التطرف ، يضحك دوما بسبب وبلا سبب • وكان فى أيام نجاحه مدمنا على

تدبير المقالب لأصدقائه ، ولكنه ترك تلك العادة الان ، فمن المؤكد أنه لم يعد يشعر بميل اليها • وكان هذا المصارع ذا وجه ذكي صريح ، وكانت تصرفاته يشوبها شيء من الادعاء •

وكان المصارع المريض حريصا على اخفاء مايدل على مرضه ، ويحرص على أن يتذوق كل صنف من أصناف الطعام التى تقدم على المائدة • وكانت لديه مجموعة كبيرة من المناديل يغسلها ويكويها بنفسه فى حجرته • وقد بدأ أخيرا فى بيع حلل المصارعة التى يحوزها ، فباع واحدة منها بثمن بخس قبل عيد الميلاد ، وثانية فى الأسبوع الأول من إبريل • كانت حللا باذخة ، طالما اعتنى بها • وكانت لديه واحدة أخرى باقية • وقبل آن يصيبه المرض ، كان عمله يبشر بالخير كمصارع ، حتى ولو من ناحية الاثارة • ورغم أنه لا يعرف القراءة ، فقد كان يحتفظ بقصاصات صحف تقول عنه أنه خلال ظهوره لأول مرة فى مدريد كان أحسن من المصارع الشهير « بلمونتى » • كان يتناول طعامه وحيدا على مائدة صغيرة ولا يكاد يرفع عينيه الى ما أمامه •

وكان المصارع الذى كانت طريقته حدثا — يوما ما ، قصيرا جدا ، أسمر اللون ، بالغ الرزانة • وكان يتناول طعامه أيضا على مائدة منفصلة ، ونادرا مايبتسم ، ولايضحك أبدا • كان من « بلد الوليد » حيث يسود الناس الجد • وكان مصارعا ماهرا ، غير أن طريقته قد أصبحت قديمة حتى قبل أن ينجح فى اجتذاب حب الجمهور عن طريق مزاياه من الشجاعة والقدرة والرصانة ، ولم يعد

وجود اسمه فى الاعلانات الآن يجتذب أى امرىء إلى حلبة المصارعة • وكان الشيء الجديد فيه أنه قصير جدا حتى أنه لايكاد يرى ماوراء كاهل الثور • غير أنه كان هناك عدد آخر من المصارعين قصار القامة ، ولم ينجح هو فى فرض نفسه على مزاج الجمهور •

أما فارسا المصارعة ، فكان أحدهما نحيفا ذا وجه كوجه الصقر ، مادى الشعر ، خفيف البنية ، ذا ذراعين وساقين فى صلابة الحديد ، يرتدى أحذية رعاة ، ويشرب حتى الثمالة كل مساء ، محدقا فى كل امرأة فى الخان فى وجد وهيام • أما الآخر فكان ضخما ، أسمر الوجه ، وسيم الشكل ، ذا شعر أسود كالهنود ويدين كبيرتين • كان كل منهما فارس مصارعة عظيما ، رغم ماقيل عن الأول من فقدانه الكثير من قدرته بسبب الشراب والتبذل ، وما قيل عن الثانى أنه صعب المراس ميال إلى الشجار حتى لا يكاد يستمر فى العمل مع أى مصارع أكثر من فصل واحد فى الموسم كله •

وكان راشق السهام رجلا فى أواسط العمر ، سنجابى اللون ، سريع الحركة رغم تقدمه فى العمر ، وكان يبدو إذ يجلس إلى المائدة رجل أعمال على شيء من يسر الحال • وكانت قدماه لاتزالان صالحتين للعمل فى هذا الموسم ، وكان من الذكاء والخبرة بمكان حتى أن باستطاعته أن يعمل بانتظام حين تذهب السنون بصلابتهما • ولن يكون ثمة فرق حين تذهب سرعة قدميه عن الآن سوى أنه

سيكون خائفا على الدوام بينما هو الآن هادىء واثق من نفسه فى الحلبة وفى خارجها .

وفى هذه الليلة ، كان الجميع قد غادروا غرفة الطعام ما عدا الفارس ذا وجه الصقر الذى يفرط فى الشراب ، ودلال الساعات ذا الوجه الذى ينم عن مكان نشأته ، والذى يعمل متنقــلا فى مهرجانات أسبانيا وأعيادها ، وكان يفرط فى الشراب هو الآخر ، وقسين من جليقية جلسا الى مائدة فى الزاوية يشربان فى سعة ان لم يكن فى افراط . وفى ذلك الزمان ، كان النبيذ داخلا فى حساب الاقامة فى « اللواركا » . وكان الساقيان قد جلبا لتوهما زجاجات جديدة من « الفالدبينياس » إلى مائدة الدلال ، ثم إلى مــائدة الفارس ، وأخيرا إلى مائدة القسين .

وقف السقاة الثلاثة فى نهاية الحجرة ، وكانت القاعدة المتبعة فى ذلك الخان أن يبقوا فى الخدمة حتى ينهض الزبائن من الموائد التى تدخل خدمتها فى نطاق عمل كل منهم ، غير أن ذلك الذى كان يقوم على مائدة القسين كان مرتبطا بموعد لحضور اجتماع نقابة « الفوضويين » ، ووافق « باكو » على أن يحل محله فى خدمة تلك المائدة .

وفى الطابق العلوى ، كان المصارع المريض يرقد وحيدا على فراشه ووجهه إلى أسفل . وجلس المصارع الذى لم يعد حدثا ينظر من النافذة مستعدا للخروج إلى المقهى ، بينما كانت أخت « باكو » الكبرى فى حجرة المصارع الثالث الجبان ، وكان يحاول إقناعها

بالقيام بشىء ترفضه وهى تضحك . كان يقول لها : « هيا أيتها المتوحشة الصغيرة » .

وقالت الأخت : كلا ، لماذا أفعل ذلك ؟

ــ من أجلى .

ــ لقد أكلت وتريد الآن أن تحلى بى .

ــ مرة واحدة ، ما الضرر فى ذلك .

ــ دعنى ، قلت لك دعنى .

ــ إنه أمر بسيط للغاية .

قلت لك دعنى .

وفى أسفل ، فى حجرة الطعام ، قال الساقى الطويل الذى فات موعد انتهائه من العمل : « انظر إلى هذه الخنازير السوداءوهى تشرب » .

فقال الساقى الثانى : ليس هكذا يصح الحديث . إنهم زبائن لطاف لا يفرطون فى الشراب .

فقال الطويل : هذه طريقة حسنة للحديث بالنسبة لى ، فهنــا توجد لعنتا أسبانيا الاثنتان : المصارعون والقسس .

وقال الثانى : ولكن ليس الموضوع موضوع مصارع معين أو قس معين بالذات .

فقال الساقى الطويل . أبدا ، لا يمكنك أن تهاجم الطبقة الا عن طريق الفرد . من الضرورى أن تقتل المصــارعين الأفــراد والقسس الأفراد جميعهم ، وعندئذ لن يوجد أحد منهم .

وقال الساقى الآخر : وفر هذا إلى حين الاجتماع •

قال الساقى الطويل : انظر إلى وحشية مدريد ، الساعة الآن الحادية عشرة والنصف ، ولا يزال هؤلاء يعبون الشراب •

فقال الساقى الآخر : إنهم لم يبدأوا الأكل إلا فى العاشرة ، وكما تعرف ـ هناك أصناف كثيرة من الطعام ، وهذا النبيذ رخيص الثمن ، وقد دفعوا ثمنه • إنه ليس شديد المفعول •

وتساءل الساقى الطويل : كيف يمكن أن ينجح تضامن للعمال وهناك أغنياء مثلك !

فقال الساقى الآخر الذى كان يناهز الخمسين : لقد عملت طوال عمرى ، ويجب على أن أعمل ماتبقى لى من العمر • إنى لا أشكو من العمل ، فالعمل هو الشىء الطبيعى •

ـ أجل ، ولكن الافتقار إلى العمل يقتل المرء •

فقال الساقى الآخر : لقد عملت على الدوام • اذهب الى اجتماعك ، فلا ضرورة هناك لبقائك •

فقال الساقى الطويل : انك زميل طيب ، ولكنك تفتقر الى الايمان بعقيدة •

فقال الساقى العجوز : من الأفضل الافتقار إلى ذلك عن الافتقار الى العمل • اذهب الى اجتماعك •

ولم يقل « باكو » شيئا ، بل إنه لم يكن يفهم السياسة ، غير أنه كان يسره دائما أن يستمع إلى الساقى الطويل وهو يتحدث عن ضرورة قتل جميع القسس ورجال الشرطة • كان الساقى

الطويل يمثل له رمز الثورة ، والثورة أيضا فكرة رومانسية ، وكان هو نفسه يرغب فى أن يكون كاثوليكيا صالحا ، ثائرا ، وأن يكون لديه عمل منتظم مثل هذا على شرط أن يكون مصارعا للثيران فى نفس الوقت •

قال باكو : اذهب الى الاجتماع يا « اجنائيو » ، سوف أتولى عنك عملك •

فقال الساقى العجوز : سنتولى عنك نحن الاثنان •

فقال باكو : يكفى واحد فقط ، اذهب إلى الاجتماع •

فقال الساقى الطويل : سأذهب إذن ، وشكرا •

وفى هذا الوقت ، فى الطابق الأعلى ، كانت أخت باكو قد نجحت فى الافلات من قبضة مصارع الثيران فى مهارة تشبه مهارة المصارعين فى الافلات من طوق خصومهم ، وقالت فى غضب هذه المرة : هذه سمة الناس الجائعين • مصارع ثيران فاشل ، مثقل بالخوف • اذا كان لديك الكثير من الجرأة ، استعملها فى حلبة المصارعة •

ـ هذه طريقة العاهرات فى الحديث •

ـ العاهرة أيضا امرأة • ولكنى لست بعاهرة •

ـ ستكونينها •

ـ لن يكون ذلك على يديك •

فقال المصارع : اتركينى وحدى •

وكان قد شعر الآن بعد أن صدته الفتاة ورغبت عنه بجبنه وخوفه

العاريين يعودان إليه .

فقالت الأخت : أتركك ؟ ومن لم يتركك ؟ آلا تريدنى آن أرتب الفراش ؟ انى أتقاضى أجرا على ذلك .

قال المصارع وقد تغضن وجهه العريض الوسيم فى تجهم هو أشبه بالبكاء : اتركينى أيتها العاهرة ، أيتها العاهـرة الصغيرة القذرة .

فقالت اذ هى تغلق الباب خلفها : أيها المصارع ، يامصارعى !

وفى داخل الحجرة ، جلس المصارع على الفراش ، ولا يزال يعلو وجهه ذلك التجهم الذى كان يحيله فى الحلبة الى ابتسام دائم يخيف النظارة الأماميين ممن يدركون حقيقة ما يشاهدون . وكان يردد لنفسه بصوت مسموع : « وهذا .. وهذا .. وهذا .» كان بوسعه أن يتذكر أيام نجاحه ، ولم يكن قد مضى عليها سوى ثلاث سنوات . كان بوسعه أن يتذكر حلة المصـارعة الثقيـلة الموشاة بالذهب على كتفيه ، فى ذلك الأصيل القائظ من شـهر مايو ، حين كان صوته فى الحلبة يختلف عن صوته إذ هو يجلس فى المقهى ، وكيف كان يصوب النصل المشرع الطرف المرهف الى ذلك المكان الذى يسوده الغبار فى آعلى كتف الثور ، على كتلة العضلات السوداء ذات الزغب فوق القرنين العريضين مقـوضى الأشجار ، ذوى الطرفين المتشققين اللذين يهبطان إلى أسـفل إذ هو يهم بقتل الثور ، وكيف يغوص السيف فى جسمه فى سهولة مثل كومة من الزبد اليابس ، وراحة يده تدفع مقبض السيف ، وذراعه اليسرى تلتوى إلى آسفل ، وكتفه اليسرى إلى الأمام ، مرتكزا بثقله على ساقه اليسرى . آما تلك المرة فلم يكن ثقله على ساقه ، كان ثقله على أسفل بطنه . وحين رفع الثور رأسه غاص القرن فى جسده وتأرجح عليه مرتين قبل أن يجروه بعيدا . والآن اذا ما تأهب لقتل الثور فى الحلبة ــ ونادرا ما يفعل ــ لم يكن فى استطاعته أن ينظر الى قرنيه ، لكن .. أنى لأية عاهـرة أن تدرك معاناته قبل أن يقدم على المصارعة ؟ وما هى تجارب هؤلاء الذين يسخرون منه ؟ انهم جميعا عاهـرات ، ويدركون كيف يستغلون ذلك .

وفى أسفل ، فى حجرة الطعام ، جلس الفـارس ينظـر إلى القسين . لو كانت هناك سيدات فى الحجرة لتطلع إليهن ، أما حين لا يكون هناك نساء فانه يتسلى بالحملقة فى آى أجنبى ، انجليزى مثلا . ولما لم يكن هناك سيدات ولا أجانب ، فى الحجرة آنذاك ، فقد أخذ يحملق فى متعة ووقاحة فى القسين . وبينما هو مشغول بالحملقة ، نهض الدلال ذو الوجه المتميز وطوى منشفته وخرج تاركا نصف النبيذ فى الزجاجة الأخيرة التى طلبها . ولو أنه كان قد دفع حسابه فى الخان لكان قد أفرغ الزجاجة .

ولم يرد القسان على نظرات الفارس بمثلها . كان أحدهما يقول: « منذ عشرة أيام وأنا هنا آحاول مقابلته ، وكل يوم أجلس فى غرفة الاستقبال ثم لا يقابلنى » .

ــ ماذا يمكن أن نفعل !

ـ لا شيء .. ماذا يمكن للمرء أن يفعل ؟ لا يمكن معارضة السلطات .

ـ لقد مكثت هنا أسبوعين دون فائدة . إننى أنتظر ولن يقابلنى أحد .

ـ اننا من أقاصى الريف . ماذا يهم مدريد من شأن جليقية ؟ إن مقاطعتنا فقيرة .

ـ وهكذا بدأت أفهم حقيقة ما قام به أخونا « باسيليو » .

ـ مازلت لا أثق ثقة حقيقية فى أمانة « باسيليو » .

ـ إن مدريد هى المكان الذى يتعلم المرء فيه كيف يفهم . مدريد تقتل أسبانيا .

ـ لو أنهم يقابلون المرء ثم يرفضون .

ـ كلا ، يجب أن يهدموك ويبلوك بالانتظار .

ـ حسن .. سنرى . يمكننى الانتظار مع الآخرين .

وفى هذه اللحظة ، نهض الفارس منتصبا ، وتوجه إلى مائدة القسين وتوقف عندها ، برأسه الأسمر ووجهه الشبيه بالصقر ، يحملق فيهما ويبتسم ..

وقال قس منهما لزميله : إنه مصارع ثيران .

فقال الفارس : « ومصارع بارع » . ثم خرج من غرفة الطعام فى حلته السمراء ، أنيق الخاصرة ، مقوس الساقين ، يرتدى سراويل ضيقة فوق حذائه الريفى عالى الكعبين الذى يدق على الأرض اذ يترنح فى انتظام رتيب وهو يبتسم لنفسه . كان يعيش

فى عالم من الكفاءة الذاتية ، عالم صغير ، محكم ، مهنى ، من الاحتفال كل ليلة بالمشروبات الروحية ، ومن الوقاحة . والآن ، أشعل سيجارا وأمال قبعته على زاوية من رأسه ومضى عبر القاعة إلى المقهى ..

وغادر القسان الغرفة توا بعد الفارس ، فى عجلة ، شاعرين بأنهما آخر من بقى فى حجرة الطعام . ولم يعد هناك فى الحجرة غير « باكو » والساقى متوسط العمر . ونظفا الموائد وحملا الزجاجات إلى المطبخ .

وكان الغلام المكلف بغسل الأطباق فى المطبخ يكبر باكو بثلاثة أعوام ، وكان مفعما بالسخرية والشعور بالمرارة .

وقال الساقى متوسط العمر وهو يصب كوبا من نبيذ .

« الفالديبنياس » للغلام : خذ هذا .

وقال الغلام وهو يتناول الكوب : بكل سرور .

وقال الساقى : وأنت يا باكو ؟

فقال باكو : شكرا لك ..

وشرب ثلاثتهم .

وقال الساقى متوسط العمر : سأذهب الان .

وقالا له : مع السلامة .

وذهب . وبقيا وحدهما . وتناول « باكو » منشفة كان أحد القسين قد استعملها ، ووقف منتصبا ، ثابت الكعبين ، وأرخى المنشفة الى أسفل ، ولوح بذراعيه ورأسه يتابع الحركة فى اهتزاز يماثل

حركة مصارعة الثيران البطيئة وتحول ، وتقدم بقــدمه اليمنى قليلا ، وأجرى هجوما ثانيا سيطر به إلى حد ما على الثور الخيالى وهجم لثالث مرة فى بطء ودقة وخفة تامة ، ثم جمع المنشــفة الى وسطه ودار بعجزيه بعيدا عن الثور فى نصف حركة أخرى .

وكان غاسل الأطباق ، ويسمى « انريكى » ، يراقبه فى انتقاد واستهزاء .

قال له : كيف حال الثور ؟

قال باكو : شجاع للغاية . انظر !

وانتصب بقامته الهيفاء ، وأجرى أربع حركات هجومية أخرى بالغة الاحكام ، فى خفة ورشاقة ودقة .

وقال انريكى وهو يرتد ميدعته ، مرتكزا على الحوض المعدنى وممسكا بكوب نبيذه : وما حال الثور ؟

وقال باكو : مازالت فيه بقية ..

فقال انريكى : إنك تملأنى سقما .

ـ لماذا ؟

ـ انظر ؟

وأزاح « انريكى » ميدعته ، ثم أشاح للثور الخيالى ، وقام بأربع حركات مصارعة كاملة مسترخية على طريقة الغجر ، وأنهاها بدورة جعلت الميدعة تلتوى على شكل قوس حاد قريبا من أنف الثور إذ هو يمضى بعيدا عنه .

قال : انظر إلى هذا ، ومع ذلك فأنا أغسل الأطباق

ـ لماذا ؟

فقال انريكى : الخوف . الخوف . نفس الخوف الذى تشعر به فى الحلبة مع الثور الحقيقى .

قال « باكو » : كلا ، أنا لا أخاف .

فقال « انريكى » : كاذب . الكل يخاف . ولـكن المصـارع يستطيع أن يتحكم فى خوفه حتى يتمكن من السـيطرة على الثور لقد ذهبت إلى مصارعة للهواه وشعرت بخوف شديد حتى أننى لم أستطع منع نفسى من الفرار ، ونظر الجميع الى المسألة باعتبارها شيئا طريفا . وعلى ذلك ستخاف أنت أيضا . ولولا الخوف لتحول كل ماسح أحذية فى أسبانيا الى مصارع للثيران . انك من الريف وستخاف أكثر مما أخاف أنا .

قال باكو : كلا .

لقد مارس المصارعة كثيرا فى خياله ، وشاهد القـرون مرات عديدة ، وفم الثور المبلل ، وأذنيه تختلجان ، ثم تهبط رأسه إلى أسفل ويشرع فى الهجوم ، وتدق حوافره على الأرض ، ويمر به الثور الهائج بينما هو يهز الوشاح . ويهاجمه ثانية حين يهــزه مرة أخرى ، وأخرى ، وأخرى ، وأخرى ، إلى أن ينتهى بثنى الثور حوله فى نصف حركة عظيمة ، ويسير متثنيا وقد علقت بعض شعرات الثور بوشى حلته الذهبية من فرط قربه منه ، والثور واقف كأنما قد نام نوما مغناطيسيا ، والجمهور يهتف مصفقا ...

كلا ، إنه لن يخاف • ربما يخاف الآخرون ، أجل •• ولكن ••• هو ، إنه يعلم أنه لن يخاف • وحتى لو حدث وشعر بالخوف فقد كان يعلم أنه يستطيع القيام بها على أى حال • إنه واثق من نفسه • قال : « لن أخاف ••• »

وقال « انريكى » مرة أخرى : « كاذب » • ثم أضاف :

« لماذا لا نجرب » ؟

ـ كيف ؟

قال انريكى : انظر ، انك تحسب حساب الثور ولكنك تغفل عن القرون ، للثور قوة عظيمة فى قرونه تلك التى تعمل على السكين ، فهى تطعن كالحربة ، وتقتل كالهراوة ، انظر •• •

وفتح درج مائدة وتناول منه سكينى لحم وأضاف قائلا : سوف أربط هذين السكينين إلى رجلى أحد المقاعد ، ثم أمثل دور الثور معك حاملا المقعد ، بالسكينين كالقرنين ، فى مقدمة رأسى • فاذا نجحت فى محاورة هذين فانك عندئذ تعنى شيئا •

فقال « باكو » : أعرنى ميدعتك ، سوف نقوم بذلك المشهد فى حجرة الطعام •

فقال انريكى فجأة دونما مرارة : كلا ، لا تفعل ذلك ياباكو •

قال « باكو » : بلى ، اننى لست خائفا •

ـ ستشعر بالخوف حين ترى السكينين يندفعان نحوك •

قال باكو : سنرى ، اعطنى الميدعة •

وفى هذه الأثناء ، حين كان « انريكى » يربط سكينى اللحم

ثقيلى النصل ، مرهفى الحد ، الى رجلى المقعد فى احكام بمنشفتين مستعملتين حول النصف الأسفل من كل سكين ، يلفهما باحكام ويعقد عليهما ، كانت أختا « باكو » ، الخادمتان ، فى طريقهما إلى السينما لمشاهدة « جريتا جاربو » فى فيلم « أنا كريستى » • وكان واحد من القسين يجلس فى ملابسه الداخلية يقرأ فى كتاب الصلوات ، والآخر يرتدى قميص نوم ويتلو صلواته على المسبحة ، بينما ذهب جميع المصارعين ماعدا ذلك المريض إلى مقهى « فورنوس » حيث كان الفارس الضخم الأسود الشعر يلعب البلياردو ، والمصارع الرزين القصير القامة يجلس إلى مائدة مزدحمة وأمامه القهوة واللبن ، ومعه راشق السهام متوسط العمر ، وعمال جادون آخرون •

وكان الفارس الأشيب الرأس الذى يفرط فى الشراب جالسا وأمامه كأس من نبيذ « كاتلاس » ، يحملق فى سرور فى المائدة التى جلس إليها المصارع الذى تخلت عنه شجاعته مع مصارع آخر نبذ السيف ليعود راشقا للسهام ، ومعهما اثنتان من العاهرات تبدو عليهما مظاهر التعب •

ووقف الدلال على جانب الطريق يتحدث مع بعض الأصدقاء ، وكان الساقى طويل القامة فى اجتماع نقابة الفوضويين ينتظر فرصة للحديث • وجلس الساقى متوسط العمر فى شرفة مقهى « الفاريث » يشرب زجاجة صغيرة من البيرة • وكانت المرأة التى تملك خان « اللواركا » نائمة فى فراشها ، ترقد فيه على ظهرها

والوسادة تحت قدميها : ضخمة ، سمينة ، شريفة نظيفة ، سهلة التعامل ، فى غاية التدين ، ولم تفتها تلاوة الصلاة كل يوم لزوجها الذى مات منذ عشرين عاما • وكان المصارع المريض فى غرفته : وحيدا ، يرقد على فراشه ووجهه الى أسفل ، وقد أسند منديلا إلى فمه •

والآن ، فى حجرة الطعام الخالية ، ربط « انريكى » العقدة الأخيرة فى المنشفتين اللتين طوقتا السكينين إلى رجلى المقعد ، ثم رفع المقعد ، ووجه الأرجل وعليها السكينان الى الأمام ، وأمسك بالمقعد فوق رأسه وطرفا السكينين متوجهان الى الأمام مباشرة ، واحد من كل جانب من رأسه ، كقرنى الثور تماما •

قال : انهما ثقيلان ، انظر ياباكو •• انهما خطيران جدا •• لا تفعل ذلك • كان ينضح عرقا •

ووقف « باكو » فى مواجهته ، ممسكا بالميدعة ، ناشرا اياها وقد أمسك بثنيه منها فى كل يد ، وإبهاماه إلى أعلى ، والاصبع الأول إلى أسفل ، ناشرا إياها ليجذب انتباه الثور •

قال : اهجم مباشرة ، در كالثور ، اهجم مرات عديدة كما تريد •

وسأل انريكى : ولكن ، متى ستعرف المرة التى يجب أن تصد فيها الهجوم ؟ من الأفضل تحديدها بثلاث مرات ثم تقوم بنصف دورة بعدها •

قال باكو : حسن ، ولكن اهجم مباشرة •• ها •• أيها الثور !

تعال ، تعال أيها الثور الصغير •

وأقبل « انريكى » نحوه وقد خفض رأسه إلى أسفل ، وهز باكو الميدعة بمحاذاة نصل السكين حين مر بالقرب من بطنه ، اجتازه كأن بالنسبة له قرنا حقيقيا ، أبيض الطرف ، أسود ، ثقيلا • وحين مر به « انريكى » ودار ليهجم ثانية عليه ، كان ثورا حار الدماء هو الذى يهاجمه ، فدار كالقط وأتاه ثانية وهو يهز الوشاح فى بطء ، ودار الثور وهاجم مرة أخرى ، وتقدم « باكو » بقدمه بوصتين وهو يراقب النصل المشرع ، ولكن السكين لم يمر ، بل انحرف وغاص فى جسده كما لو كان زق خمر • وتفجر انبثاق حار مبخر فوق كتلة النصل الداخلية وحولها ، وهتف انريكى : آه ، آه ، دعنى أخرجه •

وانزلق « باكو » إلى الأمام على المقعد وهو لايزال ممسكا بالمبدعة ، الوشاح ، وانريكى يجذب المقعد بينما السكين يتقلب فى جسده ، فى جسده ، فى « باكو » ••

وأخرج السكين • وجلس على الأرض فى وسط البحيرة الدافئة التى تتسع •

وقال إنريكى : ضع المنشفة على الجرح •• امسكها جيدا •• سأجرى فى طلب الطبيب •• يجب أن تمسك النزيف •

قال باكو : « كان يجب أن يكون هناك قدح مطاطى » • كان قد رأى ذلك يستخدم فى الحلبة فى مثل هذه الحالات •

قال انريكى وهو يبكى : سأعود حالا • ما أردت سوى أن

أريك خطورة ذلك .

قال باكو وصوته يبدو آتيا من بعيد : « لا عليك .. ولكن ، أحضر الطبيب ... » .

فى الحلبة يرفعونك ويحملونك ويجرون بك إلى غرفة العمليات فاذا نزفت شرايين الفخذ آخر قطراتها من الدماء قبل أن تبلغها فانهم يستدعون القسيس .

قال « باكو » وهو يمسك المنشفة فى إحكام حول أسفل بطنه . اخطر أحد القسس . لم يكن بامكانه أن يصدق أن هذا حدث له .

ولكن « انريكى » جرى عبر شارع « سان خيرونيمو » إلى محطة الاسعاف الأولية التى تعمل ليل نهار ، وظل « باكو » وحده . جلس فى البداية ، ثم تكوم مقعيا ، ثم تمدد على الأرض ، حتى انتهى كل شيء ، شاعرا أن حياته تتسلل منه كما تتسرب المياه القذرة من حوض استحمام حين تنزع سدادته . كان فزعا ، يشعر بالخور ، وحاول أن يتلو صلاة التوبة ، تذكر بدايتها ولكن قبل أن يقول بأسرع ما يمكنه . آه يا إلهى ، اننى آسف أشد الأسف لأننى أخطأت فى حقك يامن تستحق حبى ، وإننى أعزم عزما قويا .. شعر بالاغماء ينتابه . وكان يرقد ووجهه ناحية الأرض ، وانتهى الأمر بمنتهى السرعة ، ان شريان الفخذ المقطوع ينزف دمه بأسرع مايتصور أحد .

وحين كان طبيب مركز الاسعافات الأولية يصعد الدرج مصطحبا

رجل الشرطة الذى أمسك بذراع « انريكى » ، كانت أختا « باكو » لا تزالان فى دار السينما فى « الجران فيا » حيث شعرتا بخيبة أمل شديدة من فيلم « جريتا جاربو » الذى ظهرت فيه نجمة السينما العظيمة فى بيئة حقيرة بائسة ، فى حين كانتا معتادتين رؤيتها محاطة بالأبهة والعظمة . واستاء الجمهور من الفيلم الى درجة بالغة ، وأعلن احتجاجه بالصفير ودق الأقدام على الأرض أما نزلاء الخان الآخرون فكانوا تقريبا يفعلون ماكانوا يقومون به حين وقعت الحادثة ماعدا أن القسين كانا قد انتهيا من صلواتهما واستعدا للنوم ، وأن الفارس الأشيب قد انتقل بشرابه ليجلس مع العاهرتين المنهكتين ، وبعد فترة وجيزة ، خرج من المقهى مع إحداهما ، وهى تلك التى كان المصارع الجبان يدفع لها ثمن ما تشرب .

ولم يعرف الفتى « باكو » شيئا عن ذلك ، ولا عما سوف يفعل كل هؤلاء الناس فى اليوم التالى وفى الأيام التالية . لم تكن لديه أية فكرة عن طريقة معيشتهم ولا كيف انتهوا . بل لم يكن يدرك أنهم انتهوا . لقد مات مليئا بالآمال ، كما يقول المثل الاسبانى . ولم تنفسح أمامه الحياة ليفقد أيا من تلك الآمال ولا كيما يكمل فى النهاية أسفه عليها .

بل لم يكن أمامه متسع من الوقت كيما يخيب أمله فى فيلم « جريتا جاربو » الذى خيب أمل مدريد كلها لمدة أسبوع .

قطة تحت المطر



قطة تحت المطر

لم يكن في الفندق من أمريكى سوى رجل وزوجته ولم يكونا يعرفان أى شخص يصادفانه على السلالم فى طريقهما من الحجرة وإليها • كانت حجرتهما فى الطابق الثانى وتطل على البحر •• وكانت تطل أيضا على الحديقة العامة وعلى النصب التذكارى المقام لذكرى الحرب • كانت الحديقة العامة تغص بالنخيلات الضخام وبالمقاعد الخضراء • وحين يكون الجو صافيا ، كان يفد إليهـا باستمرار أحد الفنانين حاملا معه لوحة الرسم • وكان الفنـانون يحبون طريقة نمو النخيل ، والألوان الناصعة للفندق المواجـه للحدائق وللبحر • وكان الايطاليون يفدون من أقصى البقـاع لمشاهدة النصب التذكارى ، وكان مصنوعا من البرونز ويلتمع حين تهطل عليه الأمطار • أخذت السماء تمطر ، وطفق ماؤها يقطر من على أفنان النخيل ، وتكونت بحيرات صغيرة من الماء على الممرات المغطاة بالحصباء • وتدفقت موجات البحر فى خيط طويل تحت الأمطار ثم انحسرت ثانية على الشاطىء لتعود مرة أخرى متدفقـة فى خيط طويل تحت الأمطار • وانفضت السيارات من حـول

قطة تحت المطر

لم يكن في الفندق من أمريكى سوى رجل وزوجته ولم يكونا يعرفان أى شخص يصادفانه على السلالم فى طريقهما من الحجرة وإليها • كانت حجرتهما فى الطابق الثانى وتطل على البحر •• وكانت تطل أيضا على الحديقة العامة وعلى النصب التذكارى المقام لذكرى الحرب • كانت الحديقة العامة تغص بالنخيلات الضخام وبالمقاعد الخضراء • وحين يكون الجو صافيا ، كان يفد إليها باستمرار أحد الفنانين حاملا معه لوحة الرسم • وكان الفنانون يحبون طريقة نمو النخيل ، والألوان الناصعة للفندق المواجه للحدائق وللبحر • وكان الايطاليون يفدون من أقصى البقاع لمشاهدة النصب التذكارى ، وكان مصنوعا من البرونز ويلتمع حين تهطل عليه الأمطار • أخذت السماء تمطر ، وطفق ماؤها يقطر من على أفنان النخيل ، وتكونت بحيرات صغيرة من الماء على الممرات المغطاة بالحصباء • وتدفقت موجات البحر فى خيط طويل تحت الأمطار ثم انحسرت ثانية على الشاطىء لتعود مرة أخرى متدفقة فى خيط طويل تحت الأمطار • وانفضت السيارات من حول

النصب التذكارى فى الميدان • وعبر الميدان ، وقف نادل فى ممر المقهى ، يتطلع أمامه إلى الميدان المقفر •

ووقفت الزوجة الأمريكية تتطلع الى الخارج من النافـذة • وهناك ، وتحت نافذتها تماما ، كانت ثمة قطة تقعى تحت مـائدة خضراء تقطر بمياه المطر • وكانت القطة تحاول أن تلملم نفسـها حتى لا يصيبها رذاذ الماء •

قالت المرأة الأمريكية : سأهبط إلى أسفل لأحضر هـذه القطيطة •

فتطوع زوجها قائلا وهو يرقد على الفراش :

ـ سأقوم أنا بهذه المهمة •

ـ كلا • سأحضرها أنا بنفسى ، تلك القطيطة المسكينة فى الخارج تحاول أن تتقى الأمطار تحت المائدة •

وواصل الزوج قراءته وهو راقد يرتكز على زوج من الحشايا فى نهاية الفراش • قال : حاذرى أن يصيبك البلل •

وهبطت الزوجة الى الطابق السفلى ، ووقف صاحب الفندق وانحنى لها حين مرت أمام غرفته • كان مكتبه فى الطرف الأقصى من الغرفة • كان رجلا مسنا بالغ الطول •

قالت الزوجة بايطالية : ان المطر يهطل ،

وكانت معجبة بصاحب الفندق •

ـ أجل ، أجل ياسنيورا • ان الجو سيىء للغاية •

ووقف خلف مكتبه فى الطرف الأقصى من الغرفة المعتمة • كانت

الزوجة معجبة به • معجبة بالطريقة الصارمة الجادة التى يتلقى بها أى شكوى من النزلاء ، معجبة بهيبته ، معجبة بطريقة خدمته لها ، معجبة بالطريقة التى كان يشعر بها بمكانته كصاحب الفندق ، معجبة بوجهه العجوز الثقيل ويديه الكبيرتين •

وفتحت الباب وهى ممتلئة اعجابا به ونظرت الى الخارج • كان المطر يهطل بشدة • وكان ثمة رجل يرتدى قبعة من المطاط يعبر الميـدان المقفر متجها الى المقهى • لابد أن القطة فى النـاحية اليمنى • وربما تستطيع أن تتجه اليها محتمية بأفاريز السطح • واذ كانت تقف فى المدخل أحست بمظلة تنفتح الى جوارها • كانت خادمة غرفتها • وقالت لها بالايطالية وهى تبتسم : « يجب ألا تبلك مياه الأمطار » • لابد أن صـاحب الفندق قد بعث بهـا خلفها • وسارت على طول الممر المغطى بالحصباء والخادمة تمسك بالمظلة فوقها حتى وصلت إلى أسفل نافذة غرفتها • وعثرت هناك على المائدة ، يلتمع سطحها الأخضر مغسولا بمياه الأمطار ، ولكن القطة لم تكن موجودة تحتها • وغمرتها فجأة موجـة من خيبـة الأمل • وتطلعت اليها الخادمة ، وقالت بالايطالية : هل ضـاع منك شىء ياسنيررا ؟

فقالت الزوجة الأمريكية : لقد كانت هنا قطة •

ـ قطة ؟

فقالت بالايطالية : أجل ، القطة •

فضحكت الخادمة وقالت : قطة ، قطة تحت المطر ؟

ــ أجل ، تحت المائدة • أوه ، لقد أردت أن أحصــل عليها • أردت أن أحصل على قطيطة •

واربد وجه الخادمة حين كانت الزوجة تتحدث بالانجليزية ، وقالت : هيا ياسنيورا ، لابد أن نعود الى الداخــل • ســوف تصيبك مياه الأمطار •

فقالت الزوجة الأمريكية : أظن ذلك •

وعادا مرة أخرى عبر الممر المغطى بالحصباء ودخلا من الباب ، وبقيت الخادمة فى الخارج لتغلق المظلة • وحين مرت الزوجــة الأمريكية بغرفة صاحب الفندق انحنى لها الرجل من وراء مكتبه وأحست الزوجة بشىء ضئيل ومحكم فى داخلها لقد جعلها صاحب الفندق تشعر بشدة ضآلتها وأهميتها الحقيقية فى ذات الوقت • وشعرت شعورا وقتيا بأهميتها القصوى • وصعدت السلالم ، وفتحت باب الغرفة • وكان زوجها « جورج » راقدا على الفراش ، يقرأ •

وسألها وهو يضع الكتاب جانبا : هل حصلت على القطة ؟

ــ لقد اختفت ؟

فقال وهو يرفع عينيه من القراءة : انى لأعجب آين ذهبت •

وجلست هى على الفراش الى جواره•

قالت : لقد كنت أرغب جدا فيها • لا أعرف لماذا أريدها بهذه الطريقة • لقد أردت تلك القطيطة المسكينة • لم يكن مناســبا ترك مثل هذه القطيطة المسكينة هناك تحت المطر •

وواصل « جورج » قراءته •

وسارت الزوجة عبر الغرفة وجلست أمام التسريحة تتطلع الى نفسها فى مرآة اليد • ودرست صورة وجهها الجانبى ، الجانب الأيمن أولا ثم الجانب الأيسر • ثم درست خلفية رأســها ثم عنقها •

قالت وهى تنظر مرة أخرى الى جانب وجهها : ألا تظن أنه من الأفضل أن أطيل شعرى قليلا ؟

ونظر « جورج » اليها ورأى عنقها من الخلف وقد بدا واضحا كأنه عنق صبى •

ــ انى أحبه هكذا •

فقالت : لقد مللت ذلك • مللت أن أبدو وكأننى صبى صغير •

واعتدل « جورج » فى رقدته على الفراش ، ولم يكن قد أزاح عنها بصره منذ أن بدأت تتحدث • وقال : انك تبدين لطيفة جملة رائعة •

ووضعت المرآة على التسريحة وسارت الى النافذة ونظــرت منها • كان الظلام قد بدأ ينسدل •

قالت : أريد أن أسدل شعرى على ظهرى مسترسلا ناعمــا ، وأجعل منه ضفيرة كبيرة أستطيع أن أتحسسها وأريد ان يــكون لى قطيطة اجلسها على حجرى وتهر حين اربت على ظهرها •

فقال « جورج » من على الفراش : ماذا ؟

— وأريد أن آكل على مائدة بملاعقى الفضية الخاصة وأريد شموعا على المائدة • وأريد أن نكون فى فصل الربيع واريد ان أنسق شعرى أمام مـرآة وأريد قطيطة وأريد بعض المـــلابس الجديدة •

فقال « جورج » وهو يعاود القراءة : أوه ، اصمتى وخذى شيئا فاقرئيه •

وكانت زوجته تتطلع من النافذة • وكان الظلام قد لف الآن كل شيء ومازال المطر يتساقط فوق النخيل •

قالت : على كل حال ، أريد قطة • أريد قطة • أريد قطة الآن • فاذا لم يكن باستطاعتى ان أطيل شعرى أو ان أحصل على أى متعة أخرى ، فباستطاعتى الحصول على قطة •

ولم يكن « جورج » ينصت اليها • كان يقرأ فى كتـابه • وتطلعت زوجته خارج النافذة حيث بدأ الضوء يسطع على الميدان • ودق أحدهم على الباب •

قال « جورج » : ادخل ! ورفع عينيه من الكتاب •

وعلى عتبة الغرفة كانت الخادمة تقف ممسكة بقطة كبيرة مصنوعة من البلاستيك وهى تضمها اليها فى احكام وتحملها على صدرها • وقالت : عفوا ياسيدى ، لقد طلب منى صاحب الفندق أن أحضر هذه القطة للسنيورا •

المخيم الهندى



كان ثمة قارب آخر مربوط الى ضفة البحيرة • ووقف الهنديان ينتظران •

ودلف « نك » ووالده الى مؤخرة القارب ، ودفعه الهنديان ، وقفز أحدهما اليه كى يجدف • وجلس العم « جورج » فى مؤخرة قارب المخيم • ودفع الهندى الشاب قارب المخيم وقفز اليه كى يجدف بالعم جورج •

وانطلق القاربان فى الظلمة • وسمع « نك » ضربات بحداف القارب الآخر على مسافة أمامهم فى وسط الضباب • كان الهنديان يجدفان بضربات متقطعة سريعة • واستلقى نك على ظهره وذراع والده تطوقه • كان الجو باردا فوق صفحة المياه • وكان الهندى الذى يجدف بهما يبذل قصارى جهده ، غير أن القارب الآخر كان يبتعد عنهما رويدا رويدا الى الأمام وسط الضباب •

تساءل « نك » : الى آين أنت ذاهب يا أبى ؟

ــ الى المخيم الهندى • هناك امرأة هندية اشتد بها المرض •

قال « نك » : آه •

وعبر الخليج ، وجدوا القارب الآخر راسيا • وكان العم جورج يدخن سيجارا فى الظلمة • وجذب الهندى الشاب القارب فوق الشاطىء • وأعطى العم جورج كلا الهنديين سيجارا •

وساروا مصعدين من الشاطىء خلال مرج بلله الندى ، مقتفين أثر الهندى الشاب الذى كان يحمل قنديلا • ثم دلفوا الى الغابة ، وساروا فى ممر أفضى بهم الى طريق قطع الأشجار الذى يتشعب الى التلال • وكان السير أيسر فى طريق قطع الأشجار اذ أن الأخشاب كانت مقطوعة على جانبى الطريق • وتوقف الهندى الشاب وأطفأ قنديله ، ثم غذوا السير جميعا مرة ثانية •

وبلغوا منعطفا ، وظهر أمامهم كلب ينبح • وتبدت لهم أنوار الأكواخ التى يعيش فيها الهنود الذين يعملون فى قطع لحاء الأشجار • واندفع نحوهم المزيد من الكلاب ، وهش بها الهنديان مرة أخرى نحو الأكواخ • وفى أقرب كوخ للطريق ، كان ثمة نور يلتمع فى النافذة • وكانت امرأة عجوز تقف عند مدخل الباب تحمل مصباحا •

وفى الداخل ، كانت هناك امرأة هندية شابة ترقد على سرير خشبى من دورين • كانت تجاهد لولادة طفلها طوال يومين • وكانت جميع النسوة العجائز فى المعسكر يساعدنها • أما الرجال فقد ابتعدوا ناحية الطريق وجلسوا يدخنون فى الظلمة بعيدا عن الضوضاء التى يحدثها صراخ المرأة • وكانت تصرخ حين تبع « نك » والهنديان الوالد والعم جورج الى داخل الكوخ • كانت

المرأة ترقد فى اللوح السفلى من السرير ، ضخمة الجثة تحت اللحاف •

وكان رأسها مائلا نحو جهة واحدة • وكان زوجها يرقد على اللوح العلوى • كان قد جرح قدمه جرحا بليغا بالبلطة منذ عدة أيام • وكان يدخن غليونا ، وعبقت الحجرة برائحة كريهة •

وأمر والد « نك » باحضار بعض الماء ووضعه على الموقد • وبينما كان الماء يسخن بادل « نك » الحديث • قال : هذه المرأة على وشك أن تلد •

قال نك : أعرف •

قال والده : انك تعرف • استمع لى • ان ماتمر به الآن هو حالة الطلق • ان الطفل يريد أن يولد وهى تريد له أن يولد • ان هذا هو مايحدث حين تصرخ •

قال نك : فهمت •

وحينئذ صرخت المرأة •

تساءل « نك » : آه يا أبى • ألا يمكنك أن تعطيها شيئا يجعلها تكف عن الصراخ ؟

قال والده : كلا • ليس لدى أى مخدر • ولكن صرخاتها ليست بذات أهمية • انى لا أسمعها انها ليست بذات أهمية •

واستدار الزوج فى مرقده باللوح الأعلى تجاه الحائط • وأشارت المرأة الموجودة بالمطبخ للطبيب بأن الماء قد سخن • وذهب والد « نك » الى المطبخ وصب حوالى نصف الماء من الغلاية

الكبيرة الى طست صغير • ووضع فى الماء الباقى بالغلاية عدة أشياء أخرجها من صرة معه •

قال : يجب ترك هذه الأشياء حتى تغلى • ثم طفق يحك يدبه نى طست الماء الساخن بقطعة صابون أحضرها من المخيم • وراقب « نك » يدى والده تحكان بعضهما بقطعة الصابون • وتكلم والده وهو يغسل يده بكل دقة وعناية :

ـ أتعرف يانك •• من المفروض أن يولد الأطفال ورآسهم فى المقدمة • ولكن لا يحدث هذا أحيانا • وحين يكون الأمر خلاف العادة ، فانهم يسببون المتاعب لكل شخص : ربما تعين على أن أجرى عملية لهذه المرأة ، سنعرف بعد هنيهة •

وحين رضى عن نظافة يديه ، دلف الى الداخل وتهيأ للعمل •

قال : اكشف هذا الغطاء ياجورج ، أفضل ألا ألمسه بيدى •

وبعد ذلك ، حين بدأ يجرى العملية ، أمسك العم جورج وثلاث رجال من الهنود بالمرأة حتى لا تتحرك • وقد عضت العم جورج فى ذراعه • وقال العم جورج : « عليك اللعنة أيتها الكلبة ! » ، وضحك الهندى الشاب الذى جدف قارب العم جـورج لذلك الحادث • وحمل « نك » الطست لوالده • واستغرق كل ذلك وقتا طويلا •

وجذب الوالد الطفل الى أعلى ولطمه كيما يجعله يتنفس ثم ناوله للمرأة العجوز •

قال : انظر يا « نك » ، انه ولد • ما رأيك وأنت تعمل الآن

مساعدا للطبيب ؟

قال نك : حسن • وكان يشيح ببصره كيما لا يرى ماكان والده يقوم به •

قال الوالد : « هكذا • هذا ينهى الأمر » ووضـع شيئا فى الطست •

ولم ينظر « نك » الى ذلك الشىء •

قال والده : الآن على أن أخيط بضع غرزات • لك أن ترى هذا « يانك » أو لا تراه ، حسبما تريد • سوف أخيط الجرح الذى فتحته •

ولم ينظر « نك » • كان حب الاستطلاع قد فارقه منـذ مدة طويلة •

وفرغ والده من عمله ونهض واقفا • ونهض العم جورج والهنود الثلاثة • وأخرج « نك » الطست الى المطبخ • وتطلع العم جورج الى ذراعه ، وابتسم الهندى الشاب وهو يتذكر ماحدث •

وقال الطبيب : سوف أضع لك مطهرا على الجرح ياجورج •

انحنى فوق المرأة الهندية • كانت هادئة الآن ، وقد انغلقت عيناها • كان يبدو عليها الشحوب الشديد • ولم تكن تعـرف ماذا حدث للطفل أو أى شىء •

قال الطبيب وهو ينهض : سوف أحضر مرة أخرى فى الصباح • يجب أن تكون ممرضة مستشفى « سان اجناس » هنا عنـد الظهيرة ، وسوف تحضر معها كل مانحتاج •

كان يشعر بالغبطه وبالرغبه فى الكلام ، كشعور لاعبى كرة القدم فى غرفة الملابس بعد المباراة .

قال : « هذا خبر جدير بالصحيفة الطبية ياجورج . طبيب يجرى عملية قيصرية بمطواة ويخيط الجرح بخيوط أمعاء رفيعة طولها تسعة أقدام » .

وكان العم جورج يقف مستندا الى الحائط وهو يتطلع الى جرحه . قال : « أوه ، انك رجل عظيم ، وهو كذلك » .

قال الطبيب : يجب أن نلقى نظرة على الأب الفخور . ان الآباء عادة هم أكثر من يعانون فى مثل هذه الظروف . يجب أن أعترف بأنه قد تحمل كل شىء فى هدوء .

وكشف الملاءة عن رأس الأب الهندى . وعادت اليه يده مبللة . وصعد على حافة اللوح الأسفل من السرير وهو يحمل المصباح فى احدى يديه ، ونظر أمامه . كان الهندى يرقد ووجهه الى الحائط . كان عنقه مقطوعا من الأذن للأذن . وسال الدم منه مكونا بحيرة عند جسده الذى أغرق مضجعه . وكان رأسه مرتكزا على ذراعه اليسرى . وكان موسى الحلاقة يرقد مفتوحا وسط الملاءة وحده الى أعلى .

قال الطبيب : خذ « نك » خارج الكوخ ياجورج .

ولم تكن ثمة حاجة الى ذلك . كان « نك » ، وقد وقف عند باب الكوخ ، يرى بوضوح اللوح الأعلى من السرير حين أمال والده رأس الهندى جانبا والمصباح فى يده .

كان الصباح قد بدأ يطلع حين سار « نك » ووالده عائدين على طول طريق قطع الأشجار فى طريقهما إلى البحيرة .

قال والده وقد راح عنه كل ماانتابه من نشوة عقب نجاح العملية : « اننى جد آسف لاحضارك معى يا « نك » . لقد كان موقفا صعبا لم يكن من الواجب أن أجعلك تشهده » .

وتساءل « نك » : هل تمر النساء دائما بمثل هذه المحنة حين يلدن ؟ .

ـ كلا . لقد كانت هذه حالة استثنائية للغاية .

ـ ولماذا قتل الزوج نفسه يا أبى !

ـ لا أدرى يا « نك » . أظن أنه لم يتحمل هذا الموقف .

ـ هل يقتل كثير من الرجال أنفسهم يا أبى ؟

ـ ليس كثيرا جدا يا « نك » .

ـ وماذا عن النساء ؟

ـ نادرا .

ـ ألا يقتلن أنفسهن أبدا ؟

ـ أوه ، أجل . أحيانا .

ـ أبى ؟

ـ ماذا يا « نك » ؟

ـ أين ذهب العم جورج ؟

ـ إنه سيعود سليما معافى .

— هل الموت صعب يا أبى ؟

— كلا • أعتقد أنه سهل جدا يا « نك » • إن الأمر يختلف باختلاف الظروف •

وجلسا فى القارب ، « نك » فى المؤخرة ، ووالده يقوم بالتجديف • وكانت الشمس تبزغ من وراء التلال • وقفزت سمكة فأحدثت دائرة فى المياه • وأمرر « نك » يده فى مياه البحيرة ، وشعر بها دافئة فى برودة الصباح الحادة •

وفى خضم الصباح الباكر فوق البحيرة ، اذ هو جالس فى مؤخرة القارب ووالده يجدف به ، شعر « نك » شعورا أكيدا بأنه لن يموت أبدا •

تلال كالأفيال البيضاء



تلال كالأفيال البيضاء

كانت التلال عبر وادى نهر « ابرو » عالية بيضاء ولم يكن فى هذا الجانب من ظلال ولا أشجار • وكانت المحطة تقع فى الشمس بين خطين من القضبان • وأمام جانب المحطة مباشرة ترتسم الظلال الدافئة للمبنى والستائر التى صنعت من خرزات «البامبو» وعلقت على باب البار المفتوح كيما تذود عنه الذباب • وجلس الأمريكى والفتاة التى معه الى مائدة فى الظل خارج المبنى • كان الجو حارا ، وسيأتى القطار السريع من « برشلونة » بعد أربعين دقيقة • ويقف القطار عند هذه المحطة دقيقتين ثم يواصل سيره الى مدريد •

سألت الفتاة : « ماذا نشرب » ؟ وكانت قد خلعت قبعتها ووضعتها على المائدة •

قال الرجل : ان الحر لعين •

ــ فلنشرب بيرة •

فصاح الرجل عبر الستارة : « اثنين بيرة » •

وسألت امرأة من عند الباب : كبيرة ؟

وانصفقت الرياح الدافئة فطوحت بالستارة الخرزية على جانب المائدة •

قال الرجل : البيرة لذيذة ومثلجة •

فقالت الفتاة : انها لذيذة •

قال الرجل : انها مجرد عملية بسيطة صغيرة يا « جيج » • انها ليست عملية على الاطلاق •

ونظرت الفتاة الى الأرض التى تقوم عليها أرجل المائدة •

ــ أعرف أنها لا تخيفك يا « جيج » • انها لا شىء فى الحقيقة مجرد السماح للهواء بالدخول •

ولم تنطق الفتاة بحرف •

ــ « سأذهب معك وأبقى معك طوال الوقت • سوف يدخلون الهواء ثم يسير كل شىء سيرا طبيعيا » •

ــ وماذا سنفعل بعد ذلك ؟

ــ سنصبح على مايرام ، مثلما كنا من قبل •

ــ وماذا يجعلك تظن ذلك الظن ؟

ــ ان هذا هو الشىء الوحيد الذى يضايقنا • انه الشىء الوحيد الذى أشقانا •

ونظرت الفتاة الى ستارة الخرز ومدت يدها وأمسكت بخيطين من خيوطها •

ــ « وهل تعتقد أننا سنصبح آنذاك على مايرام وسعداء ؟ »

ــ أعرف أننا سنكون كذلك • لا تخافى • أعرف كثيرا من

الناس فعلوا ذلك •

فقالت الفتاة : وأنا أيضا • ولقد أصبحوا سعداء تماما بعدها •

فقال الرجل : حسن • اننى لن أرغمك على ذلك ان لم تكونى راغبة فيه • لن أضطرك لهذا لو لم تكونى ترغبينه • ولكنى أعلم أن العملية بسيطة تماما •

ــ وهل تريد ذلك حقا ؟

ــ أعتقد أن ذلك هو أفضل مايمكن عمله • ولكنى لا أريدك أن تفعليها لو لم تكونى راغبة حقا فى ذلك •

ــ ولو أننى فعلتها ستكون سعيدا وتعود الحياة الى مجاريها وستحبنى ؟

ــ انى أحبك الآن • أنت تعلمين أننى أحبك •

ــ أعرف • ولكن لو أننى فعلتها فسوف تشعر بالسرور اذا قلت شيئا مثل الأفيال البيضاء مرة أخرى ، ولسوف يعجبك ذلك ؟

ــ سوف يعجبنى • إنى معجب به الآن ، ولكنى عاجز عن التفكير فيه • انك تعلمين حالتى حين أكون قلقا •

ــ ألن تقلق أبدا لو أننى فعلتها ؟

ــ لن أقلق على ذلك لأنها بسيطة جدا •

ــ اذن سأفعلها • لأننى لا تهمنى نفسى •

ــ ماذا تعنين ؟

ــ اننى لا تهمنى نفسى .

ــ حسن . أنا أهتم بك .

ــ آه ، أجل . ولكن ، لا تهمنى نفسى . وسأفعلها ، وسيكون كل شىء على مايرام .

ــ أريدك ألا تفعليها إن أنت رغبت فى ذلك .

ونهضت الفتاة وسارت حتى نهاية المحطة . وعلى الجانب الآخر ، كانت هناك حقول القمح وأشجار تقوم على ضفتى نهر « الابرو » وثمة جبال على البعد القصى خلف النهر . وتحركت ظلال سحابة فوق حقل القمح وشاهدت الفتاة النهر من خلال الأشجار .

قالت : سيكون بامكاننا أن نحصل على كل هذا . سيكون بامكاننا أن نحصل على كل شىء ونجعل الأمر أكثر استحالة يوما عن يوم .

ــ ماذا تقولين ؟

ــ أقول سيكون بامكاننا أن نحصل على كل شىء .

ــ كلا ، ليس بامكاننا ذلك .

ــ بامكاننا أن نحصل على الدنيا كلها .

ــ كلا .

ــ بامكاننا أن نذهب الى أى مكان .

ــ كلا ، لا نستطيع ذلك . لم تعد دنيانا بعد .

ــ انها دنيانا .

ــ كلا ، واذا أخذوها منك مرة ، فانك لا تستعيدها أبدا بعد ذلك .

ــ ولكنهم لم يأخذوها .

ــ سننتظر ونرى .

قال : تعالى الى الظل . يجب ألا تفكرى بهذه الطريقة .

فقالت الفتاة : انى لا أفكر فى شىء . انى أعرف الأشياء ليس الا .

ــ لا أريدك أن تفعلى شيئا لا ترغبين فيه ..

قالت : ولا هذا أيضا . انى أعرف . هل نتناول مزيدا من البيرة ؟ .

ــ حسن . ولكن يجب أن تدركى ..

فقالت الفتاة . انى أدرك . ألا يمكن أن نكف عن الحديث ؟

وجلسا الى المائدة ونظرت الفتاة الى التلال على الجانب الجاف من الوادى . ونظر الرجل اليها والى المائدة .

قال : يجب أن تدركى أننى لا أريدك أن تفعليها ان لم تكونى تريدين ذلك . اننى على استعداد تام لتحمل الأمر لو أنه يعنى أى شىء بالنسبة لك .

ــ ألا يعنى أى شىء بالنسبة لك ؟ يمكننا أن نتحمل .

ــ بالطبع يعنينى . ولكنى لا أريد أحدا سواك . لا أريد أحدا آخر . وانى أعلم أنها عملية بسيطة للغاية .

ــ أجل أنت تعلم أنها بسيطة للغاية .

— انه مجرد شيء تقولينه ، ولكنى أعلم تماما .

— هل لك أن تسدى لى معروفا الآن ؟

— انى أفعل أى شيء من أجلك .

— أرجوك أرجوك أرجوك أرجوك أرجوك أرجوك ارجوك ان تـكف عن الكلام .

ولم يقل شيئا بل نظر الى الحقائب المسندة الى جدار المحطة . كانت عليها بطاقات الفنادق التى قضيا فيها لياليهما .

قال : ولكنى لا أريدك أن تفعليها . لا يهمنى أى شيء .

قالت الفتاة : سأصرخ .

وأقبلت المرأة من بين ستارة الخرز ومعها زجاجتين آخريين من البيرة ، ووضعتهما على طبقين مس الفلين الندى .

قالت المرأة : سيصل القطار فى خلال خمس دقائق .

فسألت الفتاة : ماذا قالت ؟

— ان القطار سيصل فى خلال خمس دقائق .

وابتسمت الفتاة للمرأة فى بهاء شاكرة لها .

قال الرجل : يحسن أن أحمل الحقائب الى الجانب الآخر من المحطة .

وابتسمت له ، ثم قالت : حسن . وتعال بعدها لنشرب البيرة .

والتقط الحقيبتين الثقيلتين وحملها حول المحطة الى الجـانب الآخر . ونظر على طول الطريق ولكنه لم ير أى قطار قادم . وعاد وسار عبر غرفة البار حيث كان بها المسافرون المنتظرون يشربون .

وشرب كأسا من « الأنيس » على البار وتطلع الى الناس . كانوا جميعا ينتظرون القطار فى وقار . وخرج عن طريق الستارة الخرز .

وكانت الفتاة تجلس إلى المائدة تبتسم له .

سألها : هل تشعرين بتحسن ؟

قالت : انى على مايرام . لا شيء بى . انى على مايرام .

مكان جيد حسن الإضاءة



مكان جيد حسن الاضاءة

كان الوقت متأخرا وقد غادر الجميع الحانة ماعدا رجلا عجوزا جلس فى ظل شجرة تعكس أضواء الكهرباء • كان الطريق متربا أثناء النهار ، أما فى الليل فقد أزال الندى الغبار ، وأحب العجوز أن يبقى حتى هذا الوقت المتأخر لأن الهدوء كان يعم كل شىء • وكان النادلان داخل الحانة يدركان أن العجوز قد ثمل الى حد ما • ورغم أنه كان زبونا طيبا فقد كانا يعلمان أنه اذا ثمل تماما فسوف يخرج دون أن يدفع الحساب ، لذلك فقد ظلا يراقبانه ••

قال أحدهما للاخر : لقد حاول الانتحار فى الاسبوع الماضى •

ــ لماذا ؟

ــ كان يائسا !

ــ من أى شىء ؟

ــ من لاشىء !

ــ كيف عرفت أنه لا شىء ؟

ــ لأنه يملك مالا كثيرا ؟

وجلسا معا الى مائدة مجاورة بالقرب من باب الحــانة • ونظرا

إلى الصالة حيث الموائد خالية عدا تلك التى يجلس إليها العجوز فى ظل أوراق الشجرة التى تميل ببطء مع النسيم ••

ودق العجوز بكوبه على الطبق ، وذهب إليـه النادل الشاب :

ــ ماذا تريد ؟

ونظر إليه العجوز وقال : مزيدا من البراندى !

وقال النادل الشاب : أخشى عليك أن تثمل •

فنظر إليه العجوز نظرة استنكار ، فدار النادل على عقبيـه ليحمل إليه مايريد • وفى طريق عودته قال لزميله المسن :

ــ انه سيبقى طول الليل وأنا أشعر بالنعاس •• اننى لا أذهب لفراشى قبل الثالثة صباحا •• كان يحسن به أن يقتل نفسه فى الأسبوع الماضى •

وتناول النادل زجاجة من البراندى وبطاقة حساب أخرى من مائدة الصراف فى داخل الحانة ، وخرج بهما الى مائدة العجوز ، ووضع البطاقة ثم ملأ الكوب بالبراندى ، وقال للعجوز الأصم :

كان يحسن بك أن تقتل نفسك فى الأسبوع الماضى •

وأشار الرجل العجوز باصبعه وقال : مزيدا !

فأفرغ النادل مزيدا من البراندى حتى سال من القدح وسقط على بطاقات الحساب •

قال العجوز : شكرا •

وأعاد النادل الشاب الزجاجة الى داخل الحانة وجلس مـرة أخرى الى المائدة مع زميله المسن وقال له :

ــ انه الآن قد ثمل •

فأجابه : إنه ثمل كل ليلة •

ــ لماذا حاول أن يقتل نفسه ؟

ــ من أين لى أن أعلم •

ــ وكيف فعل ذلك ؟

ــ حاول أن يشنق نفسه بحبل •

ــ ومن أنقذه ؟

ــ ابنة أخيه •

ــ ولماذا أنقذوه ؟

ــ خوفا على حياته •

ــ كم يملك من المال ؟

ــ الكثير •

ــ لابد أنه قد قارب الثمانين من عمره •

ــ أعتقد أنه فى الثمانين •

ــ انى أتمنى لو عاد الى بيته الآن • إنى لا آذهب الى فراشى قبل الثالثة صباحا كل يوم ، ويالها من ساعة يأوى فيها الانسان لفراشه ؟

ــ انه يبقى هنا لأنه يحب ذلك •

ــ انه وحيد ، أما أنا فلى زوجة تنتظرنى •

ــ وهو أيضا كانت له زوجة يوما ما •

ــ ان الزوجة ليست بذات فائدة له الآن •

ـ من أدراك ، قد يكون أفضل حالا لو كانت معه زوجة •
ـ ان ابنة أخيه تعنى بحاله •
ـ أعرف ذلك • لقد قلت لك إنها هى التى أنقذته •
ـ أنا لا أتمنى أن أكون فى مثل سنه ، ان الكبر فى السن شىء مزعج •
ـ ليس دائما ، فهذا العجوز رجل نظيف ويشرب دون أن يريق النبيذ حتى وهو ثمل ، انظر اليه !
ـ لا أريد أن أنظر اليه • كم أتمنى أن يعود الى منزله ! انه لا يلقى بالا للذين يعملون •
ونظر العجوز من فوق قدحه عبر الصالة المستديرة ، ثم الى النادلين ، ونادى مشيرا الى قدحه : مزيدا من البراندى !
وذهب اليه النادل الشاب المتلهف على العودة وقال له : خلاص ! لا مزيد الليلة •• سنغلق !
وقال العجوز : كوبا آخر !
ـ كلا •• خلاص !
ومسح النادل طرف المائدة بمنشفة وهو يهز رأسه ، فنهض العجوز ببطء وعد بطاقات الحساب التى أمامه ثم أخرج حافظة نقود جلدية من جيبه ودفع ثمن المشروبات ، تاركا نصف « بيزيتة » كبقشيش • ونظر اليه النادل وهو يسير فى الطريق •• رجل بالغ الهرم يسير مترنحا وان يكن بوقار •
وسأل النادل المسن زميله وهما يغلقان مصاريع النوافذ : لماذا

لم تدعه يبقى ويشرب •• انها لم تكد تبلغ الثانية والنصف !
ـ أريد أن آوى الى فراشى •
ـ وماذا فى ساعة أخرى ؟
ـ انها أهم عندى عنها لديه •
ـ إن ساعة زمن هى ساعة زمن !
ـ انك تتحدث كرجل عجوز أنت الآخر •• ان باستطاعته أن يشترى زجاجة يشربها فى منزله •
ـ ان ذلك مختلف •
ـ نعم ان ذلك مختلف •• معك حق •
ـ وأنت ؟ ألا تخشى أن تعود لبيتك قبل ساعتك المعتادة ؟
ـ أتحاول اهانتى ؟
ـ كلا أيها الرجل ، انما أنا أمزح فقط •
وقال النادل المتعجل وهو ينهض بعد أن فرغ من اغلاق المصاريع المعدنية : « كلا ، انى واثق من نفسى ، انى كلى ثقة ! »
قال النادل العجوز : ان لديك الشباب ، والثقة ، والعمل، أنت تملك كل شىء •
ـ وماذا ينقصك أنت !
ـ كل شىء الا العمل •
ـ ان لديك كل مالدى •
ـ كلا • لم أثق فى شىء قط •• ثم اننى لست شابا •
ـ هيا ، فلنكف عن هذاالهراء ولنغلق المحل •

فقال النادل العجوز : أنا من الذين يحبون البقاء فى الحانة حتى وقت متأخر ، مع أولئك الذين لايرغبون فى العودة الى الفراش ، مع أولئك الذين يحتاجون للنور فى الليل •

ــ أما أنا فأريد العودة الى منزلى وفراشى •

ــ اننا على طرفى نقيض •• انها ليست مسألة شباب وثقة فقط ، مع أن هذه الأشياء جميلة • انى أبطىء فى الاغلاق كل ليلة فربما كان هناك أحد فى حاجة الى القهوة •

ــ يارجل ، هناك حانات كثيرة تظل مفتوحة طوال الليل •

ــ انك لا تفهمنى ! هذه حانة نظيفة تشرح الصدر ، انها حسنة الاضاءة ، والضوء شيء جميل !

قال النادل الشاب : سعدت مساء

وبعد أن أطفأ النور ، واصل النادل الآخر الحديث مع نفسه : « ان النور هو المهم طبعا ، ولكن يلزم أيضا أن يكون المكان نظيفا بهيجا ، الموسيقى غير ضرورية ، لا حاجة للموسيقى بكل تأكيد ، كما أن المرء لا يستطيع الشراب فى احدى الحانات مع الاحتفاظ بوقاره ، رغم أن تلك الأماكن هى التى تبقى مفتوحة فى مثل هذه الساعات •• مم يخاف ؟ لم يكن خوفا أو خشية ، بل هى لا شيئية يعرفها تمام المعرفة •• ان الأمر كله لا شيء ، والانسان أيضا لا شيء ، ان الأمر كله كذلك ، ولا يحتاج الا الى النور وبعض النظافة والترتيب • ان بعض الناس يعيشون فى اللاشيء دون ان لايشعروا أبدا بحقيقته •• أما هو فانه كان

يعلم أنه لا شيء ثم لا شيء ، ولا شيء ثم لا شيء • لا شيئنا الذى فى اللاشيء ، لا شيء اسمك ، لا شيء ملكوتك ، لتكن مشيئتك لاشيء فى لاشيء ، كما هى فى اللاشيء ، اعطنا هذا اللاشيء ، لا شيئنا اليومى •• ولا تشيئنا فى اللاشيء ، بل نجنا من اللاشيء من أجل لا شيء ! •• سلاما أيها اللاشيء المليء باللاشيء •• لا شيء معك ! » •

وابتسم الرجل ، ووقف أمام احدى الحانات فى الطريق حيث كانت ثمة آلة معه لصنع القهوة تعمل بضغط البخار • وسأله البارمان :

ــ ماذا تطلب ؟

وأجابه : لا شيء !

فقال البارمان : مجنون آخر !

فقال النادل المسن ، كأسا صغيرا ••

وصب له البارمان كأسا ، وقال النادل :

ــ النور ساطع جدا ، ولكن البار غير مصقول !

فنظر اليه البارمان دون أن يجيبه •••

كان الوقت متأخرا لتبادل مثل هذا الحديث ••

وسأله البارمان : أتريد شيئا آخر ؟

فقال النادل : كلا ، شكرا ! ثم خرج •

كان يكره البارات والحانات ، غير أن حانة نظيفة حسنة الاضاءة شيء مختلف تماما • والآن ، بدون مزيد من التفكير سيعود الى

حجرته الموحشة ، ويرقد على الفراش ، ويستغرق فى النوم آخيرا مع تباشير صباح جديد ••

وقال لنفسه : على كل حال ، قد تكون هذه احدى حـالات الأرق التى تصيب الكثيرين •



عشرة هنود

بعد أحد احتفالات عيد الرابع من يونيو ، مر « نك » بتسعة هنود سكارى على قارعة الطريق ، وكان عائدا من المدينة الى منزله فى وقت متأخر مع « جو جارنر » وأسرته فى العربة الكبيرة . ويذكر « نك » أنهم كانوا تسعة أشخاص ، لأن « جو جارنر » جذب أعنة الجياد وكان يقود العربة فى الغسق وقفز الى الأرض على الطريق وجذب أحد الهنود من أمام مسار العجلات . وكان الهندى نائما وقد دس وجهه فى الرمال . وجذبه « جو » بعيدا الى ناحية الشجيرات وعاد ثانية الى مكان القيادة فى العربة . قال « جو » : هذا يجعل عددهم تسعة . مابين هذه المنطقة وطرف المدينة .

قالت مسز « جارنر » : يا لهؤلاء الهنود ! .

وكان « نك » يجلس فى المقعد الخلفى مع ولدى جارنر . كان يتطلع من مكانه فى المقعد الخلفى ليرى الهندى مقعيا حيث جذبه « جو » بعيداً عن الطريق .

تساءل « كارل » : هل هو « بيللى تابلشو » ؟

ـ كلا •

ـ ان سرواله كبير يشبه سروال « بيللى »

ـ كل الهنود يرتدون سراويل متشابهة •

قال « فرانك » الابن الثانى لجو جارنر : لم آره بالمـــرة • لقد هبط بابا الى الطريق وعاد ثانية قبل أن أرى أى شىء • ظننت أنه ذهب يقتل ثعبانا •

قال « جو جارنر » : يبدو لى أن كثيرا من الهنود سيقتلون ثعابين الليلة •

وقالت مسز جارنر : يا لهؤلاء الهنود !

وساروا فى طريقهم • والتوى خط السير عنـــد الطريق الرئيسى وسار مصعدا وسط التلال • وكان الحمل ثقيلا على الجيـــاد • فنزل الأولاد وساروا على أقدامهم • كان الطريق رمليـــا • وتطلع « نك » من على قمة التل الى مبنى المدرسة • وشـــاهد أنوار مدينة « بتوسكى » ، كما رأى أنوار مرفأ « سبرنجز » عبر خليج « ترافيرس » الصغير • وعادوا مرة أخرى الى العربة •

قال « جو جارنر » : ينبغى لهم أن ينثروا بعض الحصباء على هذا الطريق •

وسارت العربة على طول الطريق وسط الغابات • وجلس «جو» ومسز « جارنر » متجاورين فى المقعد الأمامى • وجلس « نك » بين الصبيين • وخرج بهم الطريق الى الخلاء •

ـ هنا بالضبط داس بابا الثعبان بالعربة •

ـ كلا ، بعد ذلك •

فقال جو دون أن يدير رأسه • ان المكان الذى حدثت فيـــه تلك الواقعة ليس هو المهم ، فبوسع المرء أن يدوس ثعبانا فى أى مكان •

فقال « نك » : لقد رأيت ذئبين فى الليلة الماضية •

ـ أين ؟

ـ هناك عند البحيرة • كانا يبحثان عن الأسماك الميتة على طول الشاطىء •

فقال كارل : ربما كانا مجرد قطين •

ـ بل كانا ذئبين • وأعتقد أننى أعرف منظر الذئاب •

فقال كارل : هذا أكيد ، فأنت تعرف فتاة هندية •

فقالت مسز جارنر : لا تقل هذا ياكارل •

ـ حسن • انهن يتساوين فى رائحتهن •

فضحك جو جارنر •

قالت مسز جارنر : كف عن الضحك ياجو • لا أريد لـــكارل أن ينطق بمثل هذا الكلام •

فسأل جو : هل تعرف فتاة هندية حقا يا « نك » ؟

ـ كلا •

فقال فرانك • بل يعـــرف يا بابا • ان اســـمها « برودنس ميتشل » •

— كلا •

— انه يراها كل يوم •

— كلا •

وشعر « نك » وهو يجلس بين الصبيين وسط الظلام بالخواء والسعادة فى داخلية نفسه لأنهم يحاولون استشارته حول موضوع « برودنس ميتشل » •

قال : انها ليست فتاتى •

قال كارل : ماذا يقول • اننى أراهما معا كل يوم •

قالت الأم : ان كارل لا يستطيع أن يعرف آى فتاة ولا حتى هندية •

وحافظ كارل على هدوئه •

قال فرانك : ان كارل لا يستطيع التعامل مع الفتيات •

— اخرس !

قال جو جارنر • لا عليك ياكارل ، فالفتيات لايعثرن على الشبان بسهولة هكذا • انظر الى والدك •

فقالت مسز جو وهى تدنو من جو مع اهتزازات العربة : أجل هذا ماتقوله • حسن ، لقد عرفت الكثير من الفتيات فى زمانك •

— أراهن أن بابا لم يصادف أبدا فتاة هندية

فقال جو : لا تظنن ذلك ! من الأفضل أن تسعى للابقاء على « برودنس » يا « نك » •

وهمست زوجته ببضع كلمات ضحك لها جو •

تساءل فرانك : علام تضحك ؟

فحذرته زوجته قائلة : اياك أن تقول ياجارنر •

وضحك جو ثانية •

قال جو جارنر : فليبق « نك » على « برودنس » ، فان عندى أنا فتاة رائعة •

فقالت مسز جارنر : هكذا يكون الكلام •

كانت الجياد تشق طريقها بصعوبة فى الرمال • وفرقع جو بسوطه فى الظلام صائحا : هيا ، إلى الأمام • سيتعين عليكم أن تجروا حملا أكبر من هذا غدا •

وركضوا هبوطا على طول التل ، والعربة ترتج • ونزل الجميع عند البيت • وفتحت مسز جارنر الباب ودلفت إلى الداخل ثم ظهرت ثانية وفى يدها مصباح • وأنزل « كارل » و « نك » الحاجيات من على ظهر العربة • وجلس « فرانك » فى المقعد الأمامى ليقود العربة الى المخزن ويحل وثاق الجياد • وصعد « نك » الدرجات وفتح باب المطبخ • وكانت مسز جارنر تشعل النيران فى الموقد • والتفتت بعد أن صبت الغاز على الأخشاب •

قال « نك » : مع السلامة يامسز جارنر • شكرا على توصيلكم إياى •

— أوه ، عفوا يا « نك » •

ـ لقد أمضيت وقتا رائعا •

ـ اننا نستمتع بصحبتك • ألا تبقى قليلا لتتناول بعض العشاء ؟

ـ من الأفضل أن أرحل • أظن أن والدى فى انتظارى الآن •

ـ حسنا • هيا إذن • من فضلك ارسل لى « كارل » من الخارج •

ـ حسنا •

ـ مساء الخير « يانك » •

ـ مساء الخير يامسز جارنر •

وخرج نك من العربة واتجه الى المخزن • وكان جو وفرانك يحلبان الأبقار • قال نك : « مساء الخير • لقد كان وقتا رائعا • فصاح جو جارنر : مساء الخير « يانك » • ألن تبقى لتناول الطعام ؟

ـ كلا • لا أستطيع • هل لك أن تقول لكارل أن والدته تريده ؟

ـ حسنا • مع السلامة « يانك » •

وسار « نك » عارى القدمين على الممر خارج المروج التى تقع خلف المخزن • كان الممر صقيلا والندى رطبا تحت قدميه العاريتين • وارتقى سورا عند نهاية المروج وهبط أخدودا وقدميه مبللتين من طين المستنقعات ، ثم ارتقى طريقا فى غابة من أشجار الخوخ الجافة الى أن شاهد أنوار الكوخ • وصعد على السور

واستدار الى الدهليز الأمامى • ورأى والده من خلال النافذة يجلس الى المائدة ، يقرأ فى ضوء المصباح الكبير وفتح « نك » الباب ودلف إلى الداخل •

قال والده : حسنا يانك ، هل قضيت يوما طيبا ؟

ـ لقد أمضيت وقتا رائعا يا أبى • لقد كان احتفالا عظيما •

ـ هل أنت جائع !

ـ بالطبع •

ـ ماذا فعلت بحذائك ؟

ـ لقد تركته فى العربة عند أسرة جارنر •

ـ تعال الى المطبخ معى •

وسار والد « نك » فى المقدمة ومعه المصباح • وتوقف ورفع غطاء صندوق المثلجات • ودلف « نك » الى المطبخ • وأحضر والده قطعة من الدجاج البارد على طبق ، وابريق من اللبن ، ووضعهما على المائدة أمام « نك » • وأنزل المصباح •

قال : هناك فطيرة أخرى • هل يناسبك هذا ؟

ـ عظيم !

وجلس والده على مقعد الى جوار المائدة التى يغطيها المفرش المشمع • وكان ظله يترامى ضخمان على جدار المطبخ •

ـ من ربح فى مباريات الكرة ؟

ـ فريق « بتوسكى » • خمسة لثلاثة •

وجلس والده يرقبه وهو يأكل ، وملأ كوبه من ابريق اللبن •

وشرب « نك » ومسح فمه فى المنشفة • ومد والده يده الى الرف ليحضر الفطيرة وقطع جزءا كبيرا « لنك » • كانت فطيرة فراولة •

— وماذا فعلت أنت يا أبى ؟

— لقد ذهبت للصيد هذا الصباح •

— وماذا اصطدت ؟

— أسماكا صغيرة ليس إلا •

وجلس الوالد يرقب نك وهو يأكل الفطيرة •

وتساءل نك : وماذا فعلت بعد الظهر ؟

— ذهبت للنزهة عند المعسكر الهندى •

— وهل رأيت أحدا هناك ؟

— كان الهنود جميعا فى المدينة يعبون الخمر ••

— ألم تر أحدا على الاطلاق ؟

— رأيت صديقتك « برودنس » •

— وأين كانت ؟

— كانت فى الغابة مع « فرانك » و « شبيرن » • قابلتهم مصادفة • كانوا يلهون •

ولم يكن والده ينظر ناحيته •

— ماذا كانوا يفعلون ؟

— لم أنتظر لأرى •

— قل لى ماذا كانوا يفعلون •

قال والده : لا أعرف • لقد سمعتهم يتحادثون ليس الا ••

— وكيف عرفت أنهم هم ؟

— لقد رأيتهم •

— ظننت أنك قلت إنك لم ترهم ؟

— أوه ، بل رأيتهم •

فسأل نك : ومن كان معها ؟

— « فرانك » و « وشبيرن » •

— وهل كانوا •• هل كانوا ••

— هل كانوا ماذا ؟

— هل كانوا سعداء ؟

— أعتقد ذلك •

ونهض والده من على المائدة وخرج من خلال ستارة البـاب الى المطبخ • وحين عاد مرة أخرى كان « نك » يحدق فى طبقـه كان يبكى •

وتناول والده السكين ليقطع الفطيرة : هل لك فى مزيد منها ؟

قال « نك » • كلا •

— يحسن بك أن تأخذ قطعة أخرى •

— كلا ، لا أريد مزيدا •

ونظف والده المائدة •

سأل « نك » : وفى أى منطقة من الغابة كانوا ؟

— خلف المعسكر •

وحدق نك فى طبقه •
وقال والده : من الأفضل أن تأوى إلى الفراش يانك •
ـ حسنا •
وتوجه « نك » إلى غرفته ، وخلع ملابسه ودلف إلى فراشه • وسمع والده يجول هنا وهناك فى غرفة المعيشة • ورقد « نك » على الفراش فترة طويلة ووجهه مدفون فى الوسادة • ونسى بعد برهة كل فكرة عن « برودنس » ، واستغرق آخر الأمر فى النوم • وحين استيقظ فى الليل سمع صوت الرياح تعصف وسط أحراج الشوكران خارج الكوخ ، وموجات البحيرة تتكسر على الشاطىء ، ثم استغرق فى النوم مرة أخرى • وفى الصباح كانت الرياح تعصف والأمواج تتدافع على الشاطىء • وبقى مستيقظا فترة طويلة قبل أن يتذكر أن قلبه قد تحطم •
وجال فى خاطره : ان قلبى قد تحطم • اذا كان ذلك هو شعورى فلابد أن قلبى قد تحطم •
وبعد برهة ، سمع والده يطفىء المصباح ويتجه الى غرفتـه • وسمع الرياح تعصف وسط الأشجار فى الخارج وشعر بها تدلف، باردة خلال ستارة الباب • ورقد فترة طويلة ووجهه مدفون فى الوسادة ، ونسى •••

ثلوج كليمنجارو



ثلوج كليمنجارو

كليمنجارو جبل تغطيه الثلوج ، ارتفاعه ١٩٧١٠ قدما ، ويقال أنه أعلى جبل فى أفريقيا • وقمته الغربية تسمى « ماساى نجاج نجاج » ، بيت الله • والى جوار القمة الغربية ثمة جثة فهد جافة متجمدة • ولم يفسر أحد ما كان الفهد ينشد فى تلك الأعالى •

***

قال : الشىء المدهش أن الجرح غير مؤلم • وبذلك يعرف المرء متى يبدأ العفن •

ــ أحقا ؟

ــ بالتأكيد • ورغم ذلك فانى آسف للغاية على الرائحة • انها لابد تضايقك •

ــ لا تقل هذا أرجوك • أرجوك •

قال : انظرى الى هذه الطيور • أهو المنظر أو الرائحة مايجعلها تأتى على هذا النحو ؟

كانت المحفة التى يرقد عليها الرجل تقع فى الظل العريض الذى تلقيه شجرة « ميموزا » ، واذ كان يتطلع عبر الظل الى وهج السهل ، كان ثمة ثلاثة طيور ضخمة جالسة القرفصاء فى

بذاءة ، بينما حفنة أخرى منها تحوم فى السماء ، ملقيــة ظــلالا مهرعة فى مرورها •

قال : لقد جاءت منذ أن انكسرت الشاحنة • واليوم هو أول مرة يهبط أى منها الى الارض • لقد راقبت طريقة طيرانها بدقــة فى البداية ، فلربما احتجت الى استخدام ذلك فى قصة أكتبها • ولكن هذا يبدو مضحكا الآن •

قالت : أود لو لم تفعل •

قال : انى أتكلم لا غير • انى أشعر بتحسن حين أتكلم • ولكنى لا أود أن أضايقك •

قالت : أنت تعرف أن ذلك لا يضايقنى ، انما قد أصبحت عصبية للغاية لعدم استطاعتى عمل أى شىء • أعتقد أن علينا أن نيسر الأمور قدر استطاعتنا الى أن تأتى الطائرة •

ـ أو الى أن لا تأتى !

ـ أرجوك قل لى ماذا بوسعى أن أفعل • لابد أن هناك شــيئا أستطيع أن أقوم به •

ـ بامكانك أن تبترى الساق وقد يوقف ذلك التعفن ، رغم اننى أشك فى ذلك • أو بامكانك أن تطلقى على النار • انك ماهرة فى الرماية الآن • لقد علمتك الرماية ، أليس كذلك ؟

ـ أرجوك ألا تتحدث هكذا • أليس بامكانى أن أقرأ لك ؟

ـ تقرأين ماذا ؟

ـ أى شىء فى حقيبة الكتب التى لم نقرأها بعد •

قال : لا أستطيع أن أنصت الى قراءتك • الكلام هو أســهل شىء • إننا نتعارك وهذا يجعل الوقت يمر •

ـ انى لا أتعارك • اننى لا أريد أبدا أن أتعارك • دعنا لانتعارك بعد الآن أبدا • مهمــا كنا عصبيين • ربما عادوا اليوم بشــاحنة أخرى • وربما تأتى الطائرة •

قال الرجل : لا أريد أن أتحرك • لا معنى هناك لأن أتحــرك الان الا كيما أسهل عليك الامور •

ـ ان هذا جبن •

ـ الا تدعين رجلا يموت بأقصى قدر ممكن من الراحة دون ان تشتميه ؟ مافائدة شتائمك لى الآن ؟

ـ انك لن تموت •

ـ لاتكونى حمقاء • اننى أموت الآن • اسألى هؤلاء الملاعين• وتطلع الى حيث جلست الطيور الضخمة القذرة ورءوسهما العارية مدفونة فى ريشها المقوس • وهبط طائر رابع وطفق يجرى بسرعة ثم اتجه ببطء ناحية الطيور الثلاثة الأخرى •

ـ انها دائما تكون حيث توجد مخيسات • إنها لا تكاد تلحظ • لا يمكن أن تموت اذا لم تستسلم •

ـ أين قرأت هذا ؟ انك لحمقاء سخيفة •

ـ بامكانك التفكير فى شخص آخر •

قال : بحق الله ، ان هذه هى مهنتى •

وعندها اضطجع وهدأ بعض الشىء ، وتطلع عبر الوميض

الحار للسهل الى طرف الأجمة • كان هناك بعض العصافير الصغيرة بدت منمنمة بيضاء مقابل اصفرار السهل ، وشاهد على البعد قطيعا من الحمر الوحشية ، بيضاء مقابل خضرة الأجمة • كان هذا مخيما لطيفا مقاما تحت أشجار ضخمة فى مواجهة أحد التلال ، به مياه جارية ، وبالقرب منه عين ماء كادت تجف حيث تطير منها كل صباح طيور الطهيوج •

سألت : ألا تود أن أقرأ لك ؟ ان هناك نسمة تهب •

كانت تجلس على مقعد من الخيش الى جانب محفته •

ـ كلا شكرا •

ـ ربما حضرت الشاحنة •

ـ أنا لا تهمنى الشاحنة فى شىء •

ـ انها تهمنى أنا •

ـ انك تهتمين بأشياء كثيرة جدا لا تهمنى فى شىء •

ـ ليس كثيرا جدا يامارى •

ـ مارأيك فى شراب ؟

ـ من المفروض أن الشراب ضار بك • ان دليل «بلاك» الطبى يقول بضرورة تجنب المشروبات الروحية • يجب ألا تشرب •

فصاح : مولو ! (١)

ـ أجل يا « بوانا » (٢)

قالت : يجب ألا تفعل ذلك • هذا ماكنت أعنيه بالاستسلام •

(١) اى ياغلام باللغة المحلية •
(٢) اى السيد باللغة المحلية •

انه يذكر أن ذلك ضار بصحتك • انى أعرف أن ذلك ضار بك •

قال : كلا • ان ذلك مفيد لى•

وجال فى فكره أن الآن قد انتهى كل شىء • الآن لن تكون أمامه فرصة أبدا كيما ينهى الكتاب الذى بدأه • هكذا انتهى الأمر بعراك حول شراب • ومنذ نخرت الغنغرينة فى ساقه اليمنى لم يعد يشعر بألم ، وذهب الخوف بذهاب الألم ، وكل ما يشعر به الآن تعب شديد وغضب من أن يكون هذا هو نهاية الأمر • ذلك أنه لم يعد يشعر بكثير حب استطلاع والنهاية آتية • لقد تسلطت عليه سنين كثيرة ، ولكن لم تعد الآن تعنى شيئا فى حد ذاتها • كان غريبا أن يتخلص من هذه الفكرة المستحوذة بسهولة من شعوره بالتعب •

والآن لن يستطيع أبدا أن يكتب الأشياء التى ادخر كتابتها حتى يعلم عنها مافيه الكفاية كيما يكتبها بحذق • حسن ، وهو لن يفشل كذلك فى محاولة كتابتها • ربما لم يكن فى مستطاعك أبدا كتابتها ، ولهذا أرجأت الأمر وأخرت البداية • حسن ، انه لن يعرف الآن أبدا •

قالت المرأة : أتمنى لو لم نكن قد جئنا هنا •• كانت تنظر اليه وهو يحمل الكأس وتعض على شفتيها •• « انك لم تكن لتصاب بشىء من هذا فى باريس • كنت تقول دائما انك تحب باريس • كان بوسعنا البقاء فى باريس أو الذهاب الى أى مكان • كنت مستعدة للذهاب الى أى مكان • قلت اننى كنت مستعدة

للذهاب الى أى مكان تريد . لو كنت تريد الاصطياد كان بوسعنا الذهاب الى هنغاريا حيث نكون مرتاحين » .

قال : « أموالك اللعينة ! » .

قالت : هذا ليس عدلا . لقد كانت دائما أموالك بقدر ماهي أموالي ، لقد تركت كل شيء وذهبت الى حيث تريد أن تذهب وفعلت ماتريد أن تفعل .ولكنى أتمنى لو لم نكن قد جئنا هنا .

— لقد قلت انك تحبين ذلك .

— كنت أحبه حينما كنت أنت على مايرام . ولكنى أكـرهه الآن . اننى لا أفهم لماذا يجب أن يحدث هذا لساقك ؟ ماذا فعلناه كيما نستحق أن يحدث هذا لنا ؟

— أظن أن مافعلت هو أننى نسيت أن أضع اليود على المكان الذى حككته أول مرة . ثم لم ألتفت اليه بعد ذلك لأننى لا أصاب أبدا بالعدوى . وبعدئذ ، حين تعقدت الأمور ، ربما كان استعمال محلول الفنيك الخفيف ذاك ، حين نفدت جميع المطهرات الأخرى ، هو الذى شل الأوعية الدموية الدقيقة وبدأ الغنغرينة « ونظـر اليها ثم قال » ماذا غير ذلك !

— انى لا أعنى ذلك .

— لو أننا استخدمنا ميكانيكيا ماهرا بدلا من السائق غـير المدرب ، لكان قد فحص الزيت ولما كان قد حرق أبدا محمـل الكريات فى الشاحنة .

— انى لا أعنى ذلك .

— لو أنك لم تهجرى أهلك ، أهل مقاطعات « أولد وستبرى » و « ساراتوجا » و « بالم بيتش » الملاعين كيما تحبينى .. ؟

— لقد أحببتك . هذا ليس عدلا . اننى أحبك الآن . سوف أحبك دائما . ألا تحبنى ؟

قال الرجل : « كلا . لا أظن ذلك . اننى لم أحبك أبدا » .

— ماذا تقول ياهارى ؟ انك قد خرجت عن عقلك .

— كلا . ليس لدى عقل حتى أخرج عنه !

قالت : لا تشرب هذا . أرجوك ياحبيبى ألا تشرب هذا . يجب أن نبذل كل مافى وسعنا .

قال : افعلى أنت ذلك . أنا متعب .

والآن ، فى خياله ، رأى محطة سكك حديدية فى «كاراجاتش» وكان واقفا فيها ومعه صرة أمتعته . وكان النور الأمامى للقطـار يقطع الظلمة الان ، وهو يغادر منطقة « تراس » بعد الانسحاب . كان ذلك أحد الأشياء التى ادخرها ليكتب عنها بعد ذلك . فى الصباح عند الافطار اذ يتطلع من النافذة ويرى الثلج على الجبال فى بلغاريا وسكرتيرة « نانسن » تسأل الرجل العجوز اذا كان ذلك ثلجا فينظر العجوز ويقول لا ، ليس هذا ثلجا ، الوقت مبـكر لنزول الثلج . والسكرتيرة تردد على مسامع الفتيات الأخريات : كلا ، أترين ، انه ليس ثلجا ، وهن جميعا يصحن أنه ليس ثلجا ، لقد كنا مخطئات . ولكن الحقيقة هى أنه كان ثلجا ، وقد بعثهن ذلك الضابط العجوز يخضن فيه حين عقد اتفاقية تبادل السكان .

لقد كان ثلجا ما وطئته هناك الى أن متن جميعا ذلك الشتاء .

ولقد كان ثلجا أيضا ذلك الذى هطل طيلة أسبوع عيد الميلاد تلك السنة هناك فى « جاروتال » ، تلك السنة كانوا يقيمون فى منزل قاطع الأشجار وفيه الموقد الصينى المربع الكبير الذى احتل نصف الحجرة ، وكانوا ينامون على حشايا من ورق أشجار الزان ، فى ذلك الوقت الذى جاء فيه الجندى الهارب وقدماه داميتان على الثلج . قال ان الشرطة تطارده فأعطوه جوارب من الصوف وشغلوا رجال الدرك بالتحدث اليهم الى آن انمحت آثار الأقدام بفعل الرياح .

وفى « شرونز » ، يوم عيد الميلاد ، كان الثلج باهرا لدرجة تؤذى العين ، حين ينظر المرء من الحانة ويرى الناس تعود الى بيوتها من الكنيسة . كان ذلك حيث صعدوا فى الطريق الذى مهدته الزحافات ذات اللون الأصفر على طول النهر وتلال أشجار الصنوبر شديدة الانحدار ، وأدوات الانزلاق على الجليد فوق أكتافهم ، وحيث جروا ذلك الجرى الشديد عبر الطريق الجليدى عند منزل « مادلنر » ، والثلج منبسط كالكعكة يحيط بها الصقيع والندف تهبط خفيفة كالبودرة . واستعاد فى ذهنه الاندفاع الصامت الناتج عن السرعة اذ يهبط المرء كالطائر وهو ينزلق على الجليد .

كان الثلج قد احتجزهم طوال أسبوع فى منزل « مادلنر » ذلك الوقت عندما هبت العاصفة ، فأخذوا يلعبون الورق وسط

الدخان على ضوء القنديل ، وكانت الرهانات تزداد كلما زادت خسارة الهر « لنت » . وأخيرا خسر كل شىء . كل شىء : نقود مدرسة الانزلاق على الجليد وكل مكسب الموسم ثم خسر رأسماله نفسه . وكان باستطاعته أن يراه بأنفه الطويل يلتقط الورق ثم يفتح لعبة « عمياء » . كان يوجد دائما ألعاب قمار وقتها . وحين لا يكون هناك ثلج ، نقامر ، وحين يكون هناك ثلج أكثر من اللازم نقامر . وفكر فى الوقت الذى قضاه يقامر على طول حياته .

ولكنه لم يكتب سطرا عن ذلك ، ولا عن يوم عيد الميلاد ذلك البارد الباهر والجبال تتراءى عبر السهل حين طار جونسون عبر الخطوط ليقذف بالقنابل القطار الذى يقل الضباط النمساويين الحاصلين على أجازة ، ويحصدهم بمدافعه حين انتشروا يجرون . وتذكر اذ جاء جونسون بعد ذلك الى حجرة الطعام وأخذ يحكى القصة وكيف ساد الصمت بعد ذلك ، ثم أحدهم يصيح :

أيها الوغد القاتل اللعين !

وكان هؤلاء النمساويون الذين قتلوهم آنذاك هم نفس النمساويين الذين شاركهم الانزلاق على الجليد بعد ذلك . كان « هانز » ــ الذى انزلق معه طوال تلك السنة ــ ضابطا فى قوات القيصر ، وحين ذهبا معا لصيد الأرانب البرية هناك عند التل الصغير وراء طاحونة نشر الخشب ، تحدثا عن القتال فى « باسوبيو » وعن الهجوم على « برتيكا » و « أسالون » ، وهو لم يكتب بعد حرفا عن ذلك . ولا عن « مونتى كورنو » ولا عن

« سيتى كومون » ولا عن « أرسبيدو » .

كم شتاء عاشه فى نزكى « فـوراك » و « آرل » ؟ أربعة شتاءات . ثم تذكر الرجل الذى كان يعرض ثعلبا للبيع حين كان يسير مع زوجته فى بستان « بلودنز » ، يستهدفان شراء هدايا هذه المرة ، وطعم الكريز من شراب « الكيرس » المعتق ، والاندفاع المنفلت لمسرى بودرة الثلـج على قشرة الأرض ، وهى تغنى « هاى هو ! » اذ المرء يجرى آخر مسافة نحو الثلج المصمت ، ثم يجرى قاطعا البستان فى ثلاث دورات ويخرج عبر الحفرة وعلى الطريق الجليدى وراء النزل . ثم يحل المرء أربطته ويخلع عنه زحافتى الانزلاق ويسندها الى حائط النزل الخشبى ، بينما يتبدى ضوء المصباح من النافذة . وفى الداخل ، فى وسط الدفء الداخن الذى يعبق برائحة النبيذ الطازج ، كان ثمة من يعزف على الأوكورديون .

وسأل المرأة التى كانت تجلس الى جواره فى مقعد من الخيش ، الآن ، فى أفريقيا : أين نزلنا فى باريس ؟

ـ فى فندق « كريون » . أنت تعرف ذلك .

ـ ولماذا تظنين أننى أعرف ذلك !

ـ اننا ننزل دائما هناك .

ـ كلا . ليس دائما .

ـ هناك وفى « بافيلون هنرى الرابع » فى سان جرمان . لقد قلت انك تحب ذلك الفندق .

فقال « هارى » : الحب كومة قاذورات . وأنا هو الديك الذى يقف فوقها كيما يصيح .

قالت : هل من الضرورى اذا تعين عليك أن ترحل أن تقتل كل شىء تخلفه وراءك ؟ أعنى ، أيتعين عليك أن تأخذ معـك كل شىء ، أعليك أن تقتل جوادك وزوجتك وتحرق سرجك ودرعك ؟

قال : أجل . ان نقودك اللعينة كانت درعى . طيرى ودرعى .

ـ لا تقل هذا .

ـ وهو كذلك . سأكف عن قول ذلك . لا أريد أن أجرح شعورك .

ـ لقد جاء ذلك متأخرا شيئا ما .

ـ وهو كذلك اذن . سوف أمضى فى جرح شعورك . انه يزيد من تسليتى . ان الشىء الوحيد الذى أحببت حقا أن أفعله معك لا يمكننى أن أفعله الآن .

ـ كلا ، هذا ليس صحيحا . لقد كنت تحب أشياء كثيرة ، وقد نفذت كل ماكنت تريدنى أن أفعل .

ـ أوه ، بحق الله كفى عن هذا الشقاق .

ونظر اليها فرآها تبكى .

قال : اسمعى . هل تظنين أننى أحب ذلك ؟ اننى لا أعرف لماذا أفعل ذلك . أظن أنه شبيه بمحاولة القتل كيما يستمر المرء على قيد الحياة . لقد كنت على مايرام حين بدأنا الحديث . انى لم أقصد أن أبدأ هذا الشقاق ، والآن ها أنا أبدو احمق كالبلهاء ،

واشد ما اكون قسوة معك • لا تلقى بالا ياعزيزتى الى ماأقول • انى احبك حقا • أنك تعرفين أننى أحبك • اننى لم آحب أحـدا قط كما أحببتك •

وانزلق الى الكذبة المعهودة التى يلجأ اليها لينال أغراضه •

ــ انك طيب معى •

قال : أيتها اللعينة • أيتها اللعينة الثرية • ذلك شعر • انى أفيض شعرا الآن • سقما وشعرا • شعرا سقيما •

ــ كف عن ذلك يا « هارى » • لماذا يتعين عليك آن تتحول الى شيطان الآن !

قال الرجل : انى لا أحب أن أخلف أى شىء • لا أحب آن أخلف شيئا ورائى •

***

كان الليل قد انسدل الآن وكان قد نام قليلا •

كانت الشمس قد غابت وراء التل ، وثمة ظل يحوم عبر السهل وصغار الحيوانات تأكل بالقرب من المخيم : رءوس سريعة محنية وذيول متحركة • وراقبها وهى تقيم فاصلا بينه وبين الأجمة الآن • ولم تعد الطيور تنتظر على الأرض ، بل كانت كلها تجثم فى ثقل على احدى الأشجار • كان هناك المزيد منها • وكان خادمه الصبى يجلس الى جوار محفته •

قال الصبى بانجليزيته الركيكة : ذهبت « ممصاحب » (١) لتصطاد • هل « بوانا » يريد شيئا ؟

(١) تعنى السيدة باللغة المحلية

ــ كلا •

كانت قد ذهبت لتصطاد قطعة من اللحم ، ولما كانت تعلم مدى شغفه بمراقبة مشهد الصيد فقد ذهبت بعيدا كيما لا تسبب ضوضاء فى ذلك الجانب من السهل على مرمى ابصاره • وجال فى خاطره أنها دائما ترعى مشاعره ، فى أى شىء تعرفه آو تكون قد قرأته او سمعته •

لم تكن غلطتها أنه حين عرفها كان قد استنفد بالفعل • كيف يتأتى لامرأة أن تعرف أنك لا تعنى شيئا مما قلت ، وانك لم تقل ماقلت الا بدافع العادة وكيما تحقق راحتك ! وحين لم يعـد يعنى مايقول ، لاقت آكاذيبه نجاحا بين النساء آكثر مما كان يلاقى حين كان يخبرهن بالحقيقة •

لم يكن الأمر أنه يكذب ، آكثر منه عدم وجود حق يقـال • لقد عاش حياته وانتهى ثم عاد يحياها من جديد مع آناس مختلفين ومزيد من المال ، فى أفضل ماعهده من الأماكن ، وفى آماكن جديدة عليه أيضا •

كنت تتحاشى التفكير وكان كل شىء رائعا • كنت مزودا بباطن قوى ، حتى أنك لم تتمزق شعاعا مثلهم مثل ماحدث لمعظمهم ، واتخذت موقفا بألا تعبر العمل الذى تعودت آن تعمل اهتماما ، الآن حين لم يعد بامكانك أن تقوم به • غير آنك قلت فى داخليتك أنك ستكتب عن هؤلاء الناس ، عن المتخمين بالثروات ، وأنك لست منهم فى واقع الأمر ، بل جاسوس فى بلدهم ، وأنك سوف

تتركهم وتكتب عنهم ، حتى يكتب عنهم أخيرا واحد يعرف حقيقة مايكتب عنه • ولكنه لم يكتب ذلك اطلاقا ، لأن كل يوم من عدم الكتابة ، من الراحة والنعيم ، من طريقة العيش التى يحتقرها، يضعف من قدرته ويوهن من ارادته على العمل ، حتى أنه — فى النهاية — لم يكتب أبدا • ان معارفه قد ازدادوا راحة حين لم يعد يكتب • وأفريقيا هى المكان الذى شعر فيه بأشد سعادة فى أحسن أوقات حياته ، لذلك فقد ذهب الى هناك كيما يبدأ من جـديد • ولقد رتب أمر هذه الرحلة بأقل قدر من وسائل الراحة • لم يكن هناك من صعوبات ، ولكن لم يكن هناك أى ترف • وظن أن بوسعه العودة الى الكتابة بالتمرين على هذه الصورة • ظن أن بوسعه — على نحو ما — أن يزيل الصدأ الذى ران على روحه ، كما يفعل الملاكم حين يذهب الى الجبال ليعمل ويتمرن كيما يحرق الشحم من جسده •

كانت تحب ذلك منه • قالت انها تحب ذلك • كانت تحب أى شىء مثير ، أى شىء يتضمن تغييرا فى الصورة ، حيث أناس جدد وحيث الأمور سارة • وقد شعر متوهما بعودة قوة الارادة الدافعة له على العمل • أما وأن الأمور قد انتهت إلى هذا ، وكان يعـلم أنها النهاية ، فعليه ألا يتحول الى ذلك الثعبان الذى يعض نفسه لأن ظهره قد انكسر • لم يكن ذلك ذنب هذه المرأة • لو لم تكن هى لكانت أخرى • لو أنه عاش على أكذوبة فيجب أن يحاول أن يموت عليها •

وسمع طلقة فيما وراء التل •

كانت بارعة فى الصيد ، هذه اللعينة الثرية الطيبة ، هذه التى رعت موهبته فى حنان ، وهى التى دمرتها فى نفس الوقت • هراء لقد دمر موهبته بيده • لماذا يتعين عليه القاء اللوم على هذه المرأة لرعايتها اياه حق الرعاية ؟ لقد دمر موهبته بعدم استعمالها ،بخيانة نفسه وبخيانة معتقداته ، بالافراط فى الشراب حتى انثلمت أطراف مداركه ، بالكسل ، بالخمول ، بالعنجهية ، بالكبرياء والهوى ، بكل الوسائل • ماهذا السرد ؟ كتالوج كتب قديمة ؟ وما هى موهبته على أية حال ؟ انها موهبة أى نعم ، ولكنه — بدلا من أن يستخدمها — تاجر فيها • انها لم تتمثل أبدا فيما أنجزه ، بل فيما يستطيع انجازه • ولقد اختار أن يكسب عيشه عن طريق آخر غير القلم والورق • وكان من الغريب أيضا — أليس كذلك — أنه كلما كان يقع فى حب امرأة جديدة ، يكون لديها مال أكثر مما لدى المرأة السابقة عليها • بيد أنه حين لم يعد يشعر بالحب ، حين أصبح كذوبا فحسب ، كما يحدث الآن مع هـذه المـرأة التى لديها أكبر قدر من المال ، التى لديها المال كله والتى كان لديها زوج وأولاد ، والتى كان لها عشاق لم ترض عنهم ، والتى أحبته حبا صادقا بوصفه كاتبا وانسانا وصديقا ، وبوصـفه من ثمين المقتنيات ، من الغريب أنه حين لم يكن يحبها على الاطـلاق كان كذوبا فى ادعائه الحب ، استطاع أن يعطى مقابل النقـود أكثر مما كان يعطى عادة بدافع الحب الحقيقى •

وجال فى خاطره أنه لابد أننا قد خلقنا مهيئين لما نفعل ، والمرء مع ذلك يكسب عيشه من مواهبه . لقد باع حيويته ، بشكل أو بآخر ، طوال حياته ، وعندما لا يكون لعواطفه شأن بعلاقاته فانه يوجه اهتماما أكبر للمال . لقد اكتشف ذلك ، ولكن ليس بوسعه الآن أن يكتب عنه . كلا ، انه لن يكتب عن ذلك الأمر ، رغم أنه يستحق .

ثم تجىء هى فى الصورة الآن — فى أفريقيا — تسير عبر الفضاء المكشوف تجاه المخيم . كانت ترتدى ملابس الصيد وتحمل بندقيتها . وكان كل من الصبيين يحمل مدفعا رشاشا ، ويسيران خلفها . وجال بفكره أنها لا تزال امرأة جميلة ، وجسمها لطيف ، وكانت ذات موهبة عظيمة فى أمور الحب والغرام . لم تكن بالحسناء ، ولكنه يحب وجهها ، كما أنها تقرأ بشراهة ، وتحب ركوب الخيل والصيد ، وهى بالتأكيد تفرط فى الشراب . كان زوجها قد مات وهى لا تزال على درجة من الشباب ، فكرست نفسها وقتا ما لولديها الفتيين ، اللذين لم يكونا بحاجة اليها ويشعران بالحرج وهى معهما ، ولممتلكاتها من الخيول ، وللكتب ، ولزجاجات الشراب . وكانت تحب أن تقرأ فى المساء قبل تناول العشاء ، وتشرب الويسكى بالصودا وهى تقرأ . وحين يحل وقت العشاء تكون قد ثملت الى حد ما ، أما بعد زجاجة من النبيذ مع الطعام فانها تكون ثملة بما يكفى للذهاب الى النوم .

كان ذلك قبل مرحلة العشق . فبعد أن اتخذت عشاقا لم

تعد تفرط فى الشراب لأنها لم تعد مضطرة الى الشرب كيما تنام . ولكن عشاقها كانوا يبعثون فيها الملل . لقد كانت زوجه لرجل لم يثر فيها مللا على الاطلاق ، ولكن هؤلاء الناس أضجروها الى حد بعيد .

ثم حدث أن قتل أحد ولديها فى حادث طائرة ، ولما مضى وقت على ذلك لم تعد بحاجة الى عشاق ، وكان عليها أن تولد من جديد لأن الشراب لم يعد يخفف من آلامها ، وتملكها رعب فجائى من الوحدة . الوحدة . ولكنها كانت تريد الى جوارها شخصا تحترمه .

وبدأ الأمر بسيطا للغاية . كانت تحب مايكتب وكانت دائما تحسده على الحياة التى يحياها . كانت تعتقد أنه يفعل ما يريد تماما . ولقد كانت الخطوات التى حازته عن طريقها ، والطريقة التى وقعت بها أخيرا فى غرامه جزءا من سلسلة منتظمة أقامت بها لنفسها حياة جديدة بينما باع هو ما تبقى له من حياة سابقة .

لقد باعها مقابل الأمان ، ومقابل الرفاهية أيضا ، لا سبيل الى انكار ذلك . ومقابل ماذا أيضا ؟ انه لا يعرف . انها كانت لتجلب له أى شىء يريد ، كان يعرف ذلك . ولقد كانت امرأة لطيفة ، ولعينة فى نفس الوقت . وقد كان يفضل حبها على حب أى واحدة أخرى ، هى ، لأنها أغنى ، لأنها لطيفة جدا وحساسة ، ولأنها لم تثر عليه مطلقا . والآن ، فان هذه الحياة الجديدة التى شيدتها لنفسها تؤذن بالنهاية لأنه لم يستخدم صبغة اليود منذ

أسبوعين حين دخلت شوكة الى ركبته بينما هم يهرعون لتصوير قطيع من ذكور الظباء تقف رافعة الرأس ، تحدق أمامها وخياشمها تطالع الهواء ، وآذانها ترهف السمع استرقاقا لأول ضوضاء ترسل بها مهطعة داخل الغابة . وقد سقط أيضا على الأرض قبل أن ينجح في التقاط الصورة .

هاهي قد حضرت الآن .

وأدار رأسه على المحفة كيما ينظر اليها . قال :

ــ أهلا .

فقالت له : لقد اصطدت كبشا . سوف أحضر لك مرقا دسما ، وسوف أجعلهم يعدون لك بطاطس مهروسة . كيف حالك الآن ؟

ــ أفضل بكثير .

ــ أليس هذا رائعا ؟ كنت على يقين من ذلك . لقد كنت نائما حين خرجت .

ــ لقد نمت نوما عميقا . هل توغلت كثيرا فى الغابة ؟

ــ كلا . وراء التل لا غير . لقد اصطدت الكبش بطلقة فى الصميم .

ــ انك بارعة فى التصويب .

ــ انى أحب الصيد . لقد أحببت افريقيا . لو أنك كنت على ما يرام لكانت هذه الرحلة أفضل رحلاتى . انك لا تعلم أى متعة أحس بها بالصيد معك . لقد أحببت هذا البلد .

ــ انى أحبه أيضا .

ــ ياحبيبى ! انك لا تعلم كم هو رائع أن أرى حالك يتحسن . إنى لا أحتمل غضبك . عدنى أنك لن تكلمنى غاضبا كما فعلت سابقا ؟

قال : أجل . انى لا أذكر ماقلت .

ــ انك لست مضطرا الى تدميرى . ما أنا الا امرأة فى منتصف العمر تحبك وتريد أن تفعل ما تحب . لقد سبق لى أن دمرت مرتين أو ثلاث مرات . انك لن تريد دمارى مرة أخرى .

قال : انى أود أن أدمرك مرات عدة غراما وهياما .

ــ أجل . هذا هو الدمار الحسن . هذه هى الطريقة التى خلقنا كى ندمر بها . ستكون الطائرة هنا غدا .

ــ كيف تعرفين ؟

ــ انى متأكدة من ذلك . لا مفر من وصولها . ولقد جهز الأولاد الأخشاب والحشائش لتمييز مكان الهبوط . لقد ذهبت الى هناك ورأيت المهبط مرة أخرى اليوم . هناك متسع من المكان للهبوط وقد جهزنا العلامات على الجانبين .

ــ ما الذى يجعلك تعتقدين أنها ستصل غدا ؟

ــ انى متأكدة من ذلك . لقد حان موعد وصولها منذ فترة . وعندئذ سوف يعالجون ساقك ثم يتهيأ لنا أن ندمر نفسينا غراما . ولن نعود الى ذلك الحديث المرعب .

ــ هل لنا فى كأس ؟ لقد غربت الشمس .

ــ أتظن أن ذلك مناسب ؟

ـ انى أتناول كأسا الآن •

ـ اذن ، سنشرب معا • وهتفت باللغة المحلية :

يا غلام ، اثنين ويسكى بالصودا •

وقال لها : يحسن بك ارتداء حذاء الرقبة الواقى من الناموس •

ـ سأنتظر حتى أستحم •••

وشربا معا بينما الظلمة تتكاثف • وقبل أن ينسدل الظلام ولا يعود هناك ما يكفى من الضوء للصيد ، عبر ضبع الخلاء أمامهما فى طريقه للدوران حول التل •

قال الرجل : هذا اللعين يمر من هنا كل ليلة • كل ليلة طوال أسبوعين •

ـ انه ذلك الذى يصيح فى الليل • لا يهمنى ذلك • رغم أنه حيوان قذر •

وكان باستطاعته ، اذ هما يشربان معا وليس ثمة من ألم سوى عناء الاضطجاع فى وضع واحد ، واذ الصبية يوقدون نارا تتقافز ظلالها على المخيمات ـ أن يشعر بعودة التوافق الى هذه الحياة المتمثلة فى الاستبسلام اللذيذ • انها طيبة جدا معه • وكان هو قاسيا وطالما تجاهها هذا الأصيل • انها امرأة ممتازة • رائعة حقا • وعندئذ خطر له أنه سوف يموت •

جاءه هذا الخاطر مندفعا ، ليس كاندفاع المياه أو الرياح ، بل على صورة فراغ فجائى يعبق بالشر ، والشىء الغريب أن الضبع كان يواكب حافة ذلك الخاطر •

سألته : ما الأمر يا « هارى » ؟

قال : لا شىء • يحسن بك أن تتحولى الى الجانب الآخر، ناحية الريح •

ـ هل بدل الغلام أغطيه الفراش ؟

ـ أجل • اننى أستخدم حامض البوريك الآن •

ـ وكيف تشعر ؟

ـ مهزوز شيئا ما •

قالت : سوف أذهب الآن لأستحم • وبعد ذلك سآكل معك ثم ندخل محفتك الى الخيمة •

قال لنفسه أنهما أحسنا صنعا بالكف عن الشجار • انه لم يتشاجر أبدا لمدة طويلة مع هذه المرأة ، بينما كان يتشاجر مع النساء اللائى أحبهن حبا صادقا ، شجارات طويلة لدرجة مات معها كل شىءجميل بينه وبينهن • لقد أحب أكثر من اللازم ، وطلب أكثر من اللازم ، وضيع كل شىء •

وفكر فى ذلك الوقت عندما كان وحيدا فى مدينة القسطنطينية، بعد أن تشاجر فى باريس ورحل • وتردد أولا على العاهرات ، وحين انتهى من ذلك ولم ينجح فى قتل شعوره بالوحدة بل زادها سوءا ، كتب اليها ، الأولى التى هجرته ، خطابا يخبرها فيه كيف أنه لم ينجح أبدا فى قتل حبها فى قلبه •• وكيف أنه ظن ذات مرة أنه رآها خارج فندق « الريجنس » فكاد أن يغمى عليه وشعر بالدوار ، وكيف أنه يتتبع أى امرأة تشبهها فى أى شىء ، على

طول الوليفار ، خائفا أن يكتشف أنها ليست هى ، خائفا أن يفقد الشعور الذى يهبه له هذا الظن ، وكيف أن أى امرأة عرفها جعلته يفتقدها أكثر وأكثر ، وكيف أنه لا يهم أى شىء فعلته لأنه يعرف أنه لا يستطيع أبدا مداراة نفسه من غرامها • وكتب هذا الخطاب فى النادى ، فى هدوء واتزان ، وبعثه الى نيويورك طالبا منها أن تراسله على عنوان مكتب عمله فى باريس • بدا له هذا آمنا • وفكر فى تلك الليلة التى اشتد فيها شوقه اليها حلاى ملا نفسه بالفراغ والغثيان ، فطفق يدور أمام محل « مكسيم » ، ثم تعرف على فتاة أخذها معه للعشاء • وبعد ذلك ذهبا معا يرقصان ، وكانت لا تجيد الرقص ، فتركها ليرقص مع أرمينية حسناء احتضنته بذراعيها • وأخذها من جندى بريطانى بعد عراك معه • وطلب منه الجندى أن يذهب معه الى الخارج وتعاركا فى الشارع على البلاط وسط الظلام • وضربه مرتين ، بشدة ، على جانب الفك ، ولما لم يسقط عرف من فوره أن المعركة ستكون طويلة • وضربه الجندى فى بطنه ، ثم الى جوار عينه • وتطوح واقعا ، وهجم عليه الجندى ومزق ردن معطفه ، ولكنه لكم الجندى مرتين وراء أذنه ثم طوحه بعيدا عنه مهشما اياه بقبضته اليمنى • وحين سقط الجندى عنه ، ارتطمت رأسه بأحجار الطريق أما هو فجرى سريعا بالفتاة لأنهما سمعا الشرطة الحربية فى الطريق اليهم • ودلفا الى عربة أجرة وذهبا الى فندق « هيسا » على ضفاف البوسفور حيث أمضيا ليلتهما • وتركها وحدها

عند مطلع النهار وتوجه الى « بيرا بالاس » بعين سوداء وهو يحمل معطفه على ذراعه لأن أحد ردفيه قد تمزق •

ورحل فى نفس تلك الليلة الى الأناضول • وتذكر كيف كان القطار خلال الرحلة يخترق حقول الخشخاش التى يزرعونها للحصول على الافيون ، والشعور الغريب الذى يبعثه المنظر فى النفس ، وكيف تبدو جميع المسافات خاطئة ، ثم تذكر الهجوم الذى شنوه مع ضباط القسطنطينية الذين وصلوا حديثا والذين لم يكونوا يعرفون شيئا قط ، وكيف أطلقت المدفعية النيران على القوات ، والمراقب البريطانى وهو يبكى كالطفل •

كان ذلك هو يوم شاهد لأول مرة رجال موتى يرتدون تنورات البأليه البيضاء وأحذية مقلوبة عليها كريات صوفية • وكان الأتراك يتقدمون باطراد وبثقل ، وشاهد الرجال ذوى التنورات يجرون والضباط يطلقون عليهم النار ثم يجرون هم أنفسهم ، وجرى هو والمراقب البريطانى أيضا حتى آلمته رئتيه وامتلأ فمه بطعم المرارة • وتوقفا وراء بعض الصخور وخلفهم كان الأتراك يتقدمون بثقلهم المعهود • وشهد بعد ذلك الأشياء التى لم يكن بقدرته أن يفكر فيها ، وشهد بعدها أيضا أشياء أسوأ بكثير • ولذلك فانه حين عاد الى باريس تلك المرة لم يستطع أن يحكى عن تلك الأشياء أو أن يتحمل ذكرها • وهناك ، حين كان يمر أمام المقهى كان يرى ذلك الشاعر الأمريكى جالسا وأمامه كوم من الأطباق وعلى وجهه البطاطسى ترتسم نظرة غباء ، يتحدث عن

حركة الدادائية مع رومانى يقول ان اسمه « تريستان تزارا » يرتدى دائما مونوكلا ويشكو الصداع . ثم هناك فى الشقة مع زوجته التى عاد اليه حبها مرة أخرى ، وانتهى كل الشجار ، وانتهى كل الغضب ، سعيدا بعودته الى بيته ، ومكتبه يرسل له بريده الى الشقة . وهكذا ، يوما ما ، وصل الخطاب الذى يرد على الرسالة التى سبق أن بعثها الى صديقته ، على صحفة ذات صباح وحين رأى الخط تجمد جسده كله وحاول أن يدس الخطاب تحت خطاب آخر . ولكن زوجته صاحت به : ممن هذا الخطاب ياعزيزى ؟ وكان هذا نهاية بداية ذلك الموضوع .

عادت الى ذهنه الأوقات الجميلة معهن جميعا ، والمشاجرات . كن دائما يختزن أحسن الأماكن كيما يبدأن فيها الشجار . ولماذا كن يتشاجرن حينما يكون هو فى أفضل حالاته ؟ انه لم يكتب أبدا عن ذلك لأنه ، فى البداية ، لم يكن يريد أن يسبب ألما لأى منهن ، وكذلك لأنه كان هناك ، فيما يبدو ، موضوعات كثيرة أخرى يكتب عنها . ولكنه كان يعتقد أنه سوف يكتب أيضا عن تلك الموضوعات الأخرى يوما ما . كان هناك الكثير مما يصلح للكتابة . لقد رأى العالم وهو يمر بنقطة تحول ، لا الأحداث فحسب — رغم أنه رأى الكثير من الأحداث وراقب الناس فيها ، ولكنه كان يرى أيضا التحول الدقيق ويستطيع أن يتذكر كيف كان حال الناس فى أوقات مختلفة . لقد عاش ذلك ورصده ومن واجبه أن يكتب عنه ، ولكنه الآن لن يفعل

ذلك أبدا .

قالت : كيف حالك الآن ؟ كانت قد خرجت من الخيمة بعد أن استحمت .

— على مايرام .

— أيمكنك أن تأكل الآن ؟

ورأى الصبى خلفها يحمل المنضدة الصغيرة والصبى الآخر يحمل الأطباق .

قال : أريد أن أكتب .

— يجب أن تتناول بعض المرق كيما يشد أزرك .

قال : سوف أموت الليلة . لا حاجة بى الى شد أزرى .

قالت : لا تبالغ فى الأمور ياهارى أرجوك .

— لماذا لا تستخدمين أنفك ؟ لقد تعفن نصف فخذى الآن . لماذا بحق الجحيم أتناول المرق ؟ ياغلام : احضر لى ويسكى بالصودا .

فقالت برفق : أرجوك أن تتناول المرق .

— حاضر .

وكان المرق ساخنا جدا وتعين عليه أن يمسك بالفنجان الى أن برد بما فيه الكفاية ثم دفعه الى جوفه دون أن يتذوقه .

قال : انك امرأة لطيفة . لا تلقى بالا لما أقول .

ونظرت اليه بوجهها الحبيب المعروف الذى طالما ظهر فى المجلات النسائية المشهورة ، والذى لم يتدهور الا قليلا من جراء

الشراب ، ومن جراء السهر ، الا أن تلك المجلات لم تظهر محاسنها الخفية ، ولا يديها الرقيقتين الصغيرتين • واذ نظر ورأى ابتسامتها اللطيفة المعهودة ، شعر بالموت يأتى ثانية • وفى هذه المرة لم يكن فى عجلة من أمره • كان نفخة هواء كالريح الذى يمايل الشمعة ويطيل شعلتها •

ـ يمكنهم أن يحضروا شبكتى فيما بعد ويعلقوها من الأشجار ويوقدوا النيران • انى لن أدخل الى الخيمة هذه الليلة • لا يستحق الأمر عناء الانتقال • انها ليلة صافية • ولن يسقط المطر •

اذن ••• فهكذا تموت ، وسط همسات لا تسمعها • حسن ، لن يكون هناك مزيد من الشجار • ان بوسعه أن يعد بذلك • انه لن يفسد الآن التجربة الوحيدة التى لم يمر بها أبدا من قبل • قد ينجح فى ذلك • انه قد أفسد كل شىء • ولكن •• ربما ينجح هذه المرة •

ـ هل يمكنك أن تكتبى ما أمليه ؟

قالت : اننى لم أتعلم ذلك من قبل •

ـ لا عليك •

ليس هناك متسع من الوقت طبعا ، ولو أن الأمر يبدو واضحا لدرجة قد يمكنك معها أن تضعه كله فى فقرة واحدة اذا أمكنك أن تجد صياغتها •

كان هناك بيت من كتل الأخشاب ملطخ هنا وهناك بالمونة البيضاء قائم على تل أعلى البحيرة • وكان ثمة جرس مقام على عمود

خشبى الى جوار الباب لدعوة الناس الى تناول الطعام • وخلف المنزل تقع الحقول وخلف الحقول الأشجار التى يؤخذ منها الخشب • وثمة صف من شجر الحور اللومباردى يمتد من المنزل حتى المرفأة • وأشجار حور أخرى على طول النتوء البحرى • وثمة طريق يصل الى التلال على طول حافة الأشجار ، وكان يقطف الفراولة البرية من ذلك الطريق • ثم حدث أن احترق ذلك البيت الخشبى ، واحترقت كل البنادق التى كانت معلقة على الرفوف المصنوعة من أقدام الغزلان فوق المدفأة المكشوفة ، وبعد ذلك أصبحت مواسير البنادق ـ والرصاص ذائب فى خزاناتها وكعوبها محترقة تماما ـ ملقاة على كومة الرماد الذى كان يستخدم كقلوى لصناعة الصابون فى الغلايات الحديدية الكبيرة ، وسألت جدك اذا كان يمكنك أخذها لتلعب بها فقال كلا • أترى ، انها كانت لا تزال بنادقه ، ولم يشتر أى بنادق أخرى غيرها ، كما أنه لم يعد يصطاد بعدها أبدا • وأعيد بناء المنزل فى نفس موقعه من العروق الخشبية هذه المرة ، وطلى باللون الأبيض ، ومن شرفته يرى المرء أشجار الحور ووراءها البحيرة ، ولكن لم تكن هناك بنادق أخرى بعد ذلك • وأضحت خزانات البنادق التى كانت معلقة على أقدام الغزلان على الحائط فى المنزل الخشبى القديم راقدة هناك على كومة الرماد ولم يلمسها أحد قط •

وبعد الحرب ، فى الغابة السوداء ، قمنا باستئجار غدير يزخر بأسماك الأطروط • وكان ثمة طريقان للوصول اليه ، أولهما من

الوادى عند « ترايبورج » الى طريق جانبى يصعد فى الجبال مرورا بكثير من المزارع الصغيرة ذات البيوت التى يشتهر بها الريف الألمانى ، الى أن يفضى الى الغدير ،حيث يبدأ صيدنا . والطريق الثانى يمر من حافة الغابة الى أعلى التلال من خلال غابات الصنوبر ، خروجا الى حافة المرج الى الجسر . وكانت هناك أشجار سندر على طول الغدير ، الذى لم يكن كبيرا بل كان ضيقا ، صافيا ، جاريا ، مكونا بحيرات فى الأمكنة التى ضربت فيها جذور الأشجار . وكان موسم الصيد طيبا بالنسبة لصاحب الفندق فى « ترايبورج » . كان كل شىء بهيجا وكنا جميعا أصدقاء حميمين . وفى العام التالى جاء التضخم ولم يكف المال الذى ربحه صاحب الفندق فى العام الذى قبله لشراء التجهيزات اللازمة لفتح الفندق فشنق نفسه .

بامكانك أن تملى هذا ولكن ليس بامكانك أن تملى مشاهد ميدان « كونتر سكارب » ، فى باريس ، حيث بائعو الأزهار يصبغون أزهارهم فى الطريق وتسيل الصبغة على الرصيف عند رأس خط الأوتوبيس ، والشيوخ والعجائز سكارى على الدوام بالنبيذ وبالبراندى الردىء ، والأطفال سائلة أنوفهم فى البرد ، ورائحة العرق النتن والفاقة والسكر فى مقهى « أما تيرز » ، والعاهرات فى مرقص « ميزيت » الذى كانا يقيمان أعلاه . وبوابة المبنى التى احتفت بجندى الحرس الجمهورى فى شقتها ، وخلع عنه خوذته ذات الريش المصنوع من شعر الجياد ووضعها على

الكرسى . ونزيلة الحجرة التى تقع فى آخر الصالة ، الذى يعمل زوجها فى سباق الدراجات ، وفرحتها ذلك الصباح فى محل الألبان حين فتحت صحيفة « الأوتو » ووجدت أنه قد حاز المرتبة الثالثة فى سباق « باريس ــ تور » ، أول سباق كبير يشترك فيه ، وتورد وجهها وضحكت ثم صعدت الى الطابق العلوى تصيح وهى تمسك الصحيفة الرياضية الصفراء فى يدها . وزوج السيدة التى تدير مرقص ميزيت ، ويعمل سائقا للتاكسى ، وحين كان يتعين عليه هو ، « هارى » ، اللحاق بطائرة الصباح الباكر ، طرق عليه الزوج الباب لايقاظه وشرب كلاهما كأسا من النبيذ الأبيض عند حوض البار قبل أن ينطلقا الى المطار . كان يعرف كل جيرانه فى ذلك الحى آنذاك ، لأنهم كانوا جميعهم فقراء .

وكان قاطنو ذلك الميدان ينقسمون الى فئتين : السكارى ، والرياضيون . فالسكارى يقتلون فاقتهم عن طريق الشراب ، والرياضيون يستهلكونها فى الرياضة . كانوا سلالة أهل « كوميون باريس » ، ولم يكن صعبا عليهم معرفة أين ينحازون فى السياسة كانوا يعرفون من اغتال آباءهم وأقاربهم واخوانهم وأصدقاءهم حين جاءت قوات « فرساى » واحتلت المدينة بعد « الكوميون » وأعدمت كل شخص وجدته متورم اليدين أو يرتدى قلنسوة ، أو يحمل أية علامة أخرى تنم على أنه عامل وفى هذه الفاقة ، وفى ذلك الحى المجاور لجزارة « شفالين » وبقالة النبيذ ، قام بكتابه خطة كل ماسوف يكتبه بعد ذلك . لم يكن هناك مكان فى باريس

أحبه مثل هذا المكان : الأشجار المنبسطة فى غير نظام ، البيوت البيضاء العتيقة المكسوة بالجص والمطلى أسفلها باللون البنى ، والصف الأخضر الطويل من الأتوبيسات فى ذلك الميدان ، وصبغة الأزهار الأرجوانية على الرصيف ، والانحدار المفاجىء للتل عند شارع « الكاردينال ليموان » نحو نهر « السين » ، وفى الناحية الأخرى العالم الضيق المزدحم لشارع « موفتار » • وذلك الطريق الذى يفضى الى « البانثيون » والآخر الذى كان يقطعه دوما بالدراجة ـ الوحيد المغطى بالأسفلت فى ذلك الحى ، الذى ينبسط ممهدا تحت عجلات الكاوتشوك ـ بمنازله الطويلة الضيقة والفندق الرخيص العالى الذى مات فيه الشاعر « بول فرلين » •• كانت الشقة التى يعيشان فيها لا تحتوى الا على غرفتين فقط ، وكانت لديه غرفة فى الطابق العلوى من ذلك الفندق يدفع فيها ستين فرنكا فى الشهر ، حيث كان يكتب ، وبوسعه أن يرى منها أسطح باريس ومداخنها وكل تلالها •

أما فى الشقة فلا يمكنك سوى رؤية الغابة ومحل بائع الفحم • وكان يبيع النبيذ أيضا ، النبيذ الردىء •• ورأس الحصان الذهبى خارج جزارة « شيفالين » حيث اللحوم حمراء وذهبية معلقة فى الفترينة المكشوفة ، ومحل البقالة المطلى بالأخضر حيث كانوا يشترون نبيذهم ، نبيذ جيد ورخيص • وما بقى بعد ذلك فهو الجدران المطلية بالجص ونوافذ الجيران • الجيران الذين يفتحون نوافذهم ويأخذون فى الهمهمة حين يستلقى أحدهم سكرانا بالليل

نئن ويتوجع فى تلك الحالة من الثمالة الفرنسية المشهورة التى كانوا يحاولون قبل ذلك أن يجعلوك تعتقد أنها لا توجد أبدا • يهمهمون : « أين رجل الشرطة ؟ حين لا نريده يكون دائما واقفا هناك انه ينام فى أحد الفنادق • اتصلوا بقسم الشرطة » • الى أن يلقى أحدهم جردل ماء من احدى النوافذ فيتوقف الأنين • « ماهذا ؟ ماء ؟ هذا عظيم ! » وتغلق النوافذ • « ومارى » ، الخادمة ، تحتج على يوم العمل ذى الثمانى ساعات بدلا من التسع ساعات فتقول : « اذا كان الزوج يعمل حتى السادسة مساء ، فانه لا يثمل الا قليلا عند عودته الى المنزل ولا يضيع نقودا كثيرة • أما اذا عمل حتى الخامسة مساء فقط فانه سيشرب كل ليلة ولن يتبقى معه أية نقود • ان الزوجة هى التى ستعانى حقيقة من تقصير ساعات العمل » •

وكانت المرأة تسأله الآن ، هنا ، فى افريقيا :

ـ هل تحب أن تتناول مزيدا من المرق ؟

ـ كلا ، وشكرا جزيلا • انه لذيذ للغاية •

ـ حاول أن تشرب قليلا •

ـ انى أفضل تناول بعض الويسكى بالصودا •

ـ انه ليس مناسبا لصحتك •

ـ كلا ، انه ضار بى • لقد كتب « كول بورتر » كلمات الأغنية وموسيقاها ، بأنك ستجنين بى غراما •

ـ انك تعرف أننى أحب أن أدعك تشرب كما يحلو لك •

— أوه ، أجل ، الا أنه ضار بى •

وجال فى فكره : حين تذهب ، سأفعل مايحلو لى لا كل مايحلو لى بل كل ماهو موجود • آه •• لقد كان متعبا • متعبا جدا • سوف ينام بعض الوقت • ورقد ساكنا ، ولم يـكن المـوت موجودا • لابد أنه ذهب الى مكان آخر • انه يتجول اثنين اثنين ، بالدراجات ، وفى صمت شديد ، فوق الأرصفة •

كلا ، انه لم يكتب أبدا عن باريس • ليس باريس التى يحبها • ولكن •• ماذا عن بقية الأشياء التى لم يكتب عنها أبدا ؟ ماذا عن المزرعة ، واللون الرمادى الفضى لشجرة « المريمية » ، والمياه الرقراقة السريعة فى قنوات الرى ، واخضرار البرسيم القاتم ، ويمضى الطريق صعدا فى التلال • والماشية فى الصيف خجولة كالغزلان • والثغاء ، والضوضاء المنتظمة ، والكتلة البطيئة التحرك تثير غبارا والقطيع يهبط فى الخريف • وخلف الجبال ، ووضوح التمة الحاد على ضوء الماء ، والهبوط ركوبا بمحاذاة خط القطار فى ضوء القمر الباهر عبر الوادى • وتذكر الآن الهبوط عبر الأشجار فى وسط الظلمة ممسكا بذيل الحصان حين لم يـكن باستطاعته الرؤية ، وكل القصص التى انتوى أن يكتبها •

عن الصبى الشغال نصف المعتوه الذى تركوه فى المزرعة ذلك الوقت وقالوا له أن يحرس التبن ، وذلك الوغد العجوز من « فوركس » الذى ضرب الصبى عندما حاول منعه من سرقة بعض العلف • ورفض الصبى وقول العجوز أنه سيضربه ثانية • وأحضر

الصبى بندقية من المطبخ وأطلق عليه النار حين حاول الدخول الى المخزن • وحين عادوا الى المزرعة كان قد مضى أسبوع على العجوز وهو ميت ، وقد تجمد جسده فى حظيرة المواشى ، والكلاب قد أكلت أجزاء من جثته • وجمعت أنت ماتبقى ، ملفوفا فى ملاءة ووضعته على زحافة وربطته عليها بالحبال وجعلت الصبى يساعدك فى جرها ، واصطحبتموها أنتما الاثنان وقطعتما الطريق على زلاجات الجليد ستين ميلا الى المدينة لتسليم الصبى وهو لم تكن لديه فكرة أنهم سيقبضون عليه • يظن أنه قد أدى واجبه وأنك صديقه وأنهم سيكافئونه على مافعل • وهو قد ساعد على جر جثة العجوز حتى يعرف كل شخص كيف كان العجوز شريرا وكيف أنه حاول سرقة بعض العلف الذى لا يخصه ، وحين وضع الضابط القيـود فى يدى الصبى لم يصدق عينيه ، ثم أخذ فى البكاء • هذه قصة ادخرها كيما يكتبها • كان يعرف عشرين قصة جيدة على الأقل من تلك الأيام • ولكنه لم يكتب أبدا واحدة منها • لماذا ؟

قال : قولى لهم أنت لماذا ؟

— لماذا ماذا ياعزيزى ؟

— لماذا لا شىء •

انها لم تكن تفرط فى الشراب ، الآن ، منذ أن استولت عليه • ولكنه ان عاش فلن يكتب عنها أبدا ، انه متأكد الان من ذلك • ولا عن أى منهن • فالثريات مفجرات ويفرطن فى الشراب ، أو هن يدمن لعب الطاولة • انهن مضجرات ويكررن أنفسهن • وتذكر

« جوليان » المسكين ورعبه الرومانسى من الأثرياء وكيف أنه بدأ مرة قصة بقوله : « ان المفرطين فى الثراء يختلفون عنى وعنك » • وكيف أن أحدهم قال لجوليان : « أجل ، فانهم يملكون نقــودا أكثر » • ولكن هذا لم يرق لجوليان • كان يعتقد أنهم جنس خاص فاتن ، وحين اكتشف أنهم ليسوا كذلك حطمه ذلك الاكتشاف مثلما حطمه أى شىء آخر •

لقد كان يحتقر أولئك الذين يتحطمون • ليس على المرء أن يحب الأمور لأنه يفهمها • لقد آمن أن بامكانه أن يقهر أى شىء ، لأنه مامن شىء أصابه بالأذى لو أنه لم يكن يهتم به • حسن • الآن لن يهتم بالموت • انه الشىء الوحيد الذى أحس بالخشية منه دائما هو الألم • ان بوسعه احتمال الألم ككل رجل آخر ، الا اذا استمر مدة طويلة وأضناه ، ولكن هنا ، كان ثمة شىء يؤلمه أشد الألم ، وعندما أحس به يحطمه تحطيما ، توقف الألم •

وتذكر منذ زمان طويل حين أصيب « ويليامسون » ، ضابط المدفعية ، بقنبلة يدوية ألقاها أحد أفراد دورية ألمانية ، حين كا آتيا عبر الأسلاك الشائكة ، وتضرع للجميع وهو يصرخ أن يقتلو كان رجلا بدينا ، عظيم الشجاعة ، وضابطا ماهرا ، رغم أنه يد التهويل فى الأمور • ولكنه فى تلك الليلة أصيب وهو بين الأسلاك الشائكة ، وشعلة من النار تضيئه ، وأمعاؤه مدلاه على الأسلاك ، ولذلك فانهم كى يحملوه اضطروا الى قص الأسلاك حتى يخلصوه منها • وصاح بى : اطلق النار على يا « هارى » • بحق المسيح

اقتلنى • وكانوا قد تناقشوا مرة بأن الله لايمكن أن ينزل بأحد مصيبة الا فى حدود احتماله ، وكانت نظرية أحدهم أن تفسير ذلك هو أنه أحيانا يصيب الألم الشديد صاحبه بالاغماء بطريقة آلية فلا يشعر بشىء بعد ذلك • ولكنه دائما كان يتذكر «ويليامسون» فى تلك الليلة ، اذ أنه لم يصب بالاغماء ، الى أن أعطاه كل مالديه من أقراص المورفين التى ادخرها لنفسه ، وحتى حينذاك فانها لم تؤد مفعولها على نحو فورى •

وحتى مايحدث الان ، مايمر به ، كان هينا جدا • واذا لم يتدهور الحال مع مرور الوقت فلا ثمة داع للقلق • عدا أنه كان يفضل رفقة أفضل • وفكر برهة فى الرفقة التى يود أن تكون معه • وجال بخاطره : كلا ، اذا كان كل ماتقوم به تنجزه فى مدة طويلة جدا ، وفى وقت متأخر جدا ، فلا يمكن لك أن تتوقع أن يكون النــاس مازالوا فى انتظارك • لقد رحل الناس جميعا ، انتهى الحفل ، وأنت الآن وحدك مع مضيفتك وجال فى خاطره : اننى أحس بالملل وأنا أموت كما أحسست دائما مع كل شىء آخر •

قال بصوت مرتفع • انه شىء ممل •

ـ ماذا ياعزيزى ؟

ـ أى شىء يستغرق المرء وقتا طويلا فى أدائه •

وتطلع الى وجهها الذى يقوم بينه وبين النيران • كانت تضطجع الى الوراء فى المقعد وضوء النيران يلتمع على وجهها ذى القسمات اللطيفة ، وكان بوسعه أن يرى أنها غافيــة • وسمع الضبع

يطلق أصواتا فيما وراء مجال النيران مباشرة •

قال : لقد كنت أكتب ، ولكنى تعبت •

ـ هل تعتقد أن بوسعك أن تنام ؟

ـ بالتأكيد • لماذا لا تأوين الى فراشك ؟

ـ أحب أن أجلس هنا معك •

سألها : هل تحسين بأى شىء غريب ؟

ـ كلا • اننى نعسانة ليس الا •

قال : أما أنا فأشعر بشىء غريب •

كان قد شعر لتوه بالموت يأتى مرة أخرى •

قال لها : أتعلمين ، ان الشىء الذى لم أفقده أبدا هو حب الاستطلاع •

ـ انك لم تفقد أى شىء مطلقا • انك أكثر من عرفت كمالا •

قال : يا الهى •• ما أقل ماتعرف النساء ! ماهذا ؟ حدسك ؟

ذلك أنه فى تلك اللحظة حضر الموت وأرسى رأسه على قدم المحفة • وكان بوسعه أن يشم أنفاسه •

وتحرك فوقه الآن ، ولكنه لم يعد له أى شكل بعد • كان يشغل حيزا وحسب •

ـ قولى له أن يرحل •

ولكنه لم يرحل بل اقترب منه •

قال له : ان أنفاسك تحرقنى ، أنت أيها اللعين •

واقترب منه أكثر فأكثر ، ولم يستطع الآن أن يتحدث اليه ،

وحين أدرك أنه لا يستطيع الكلام اقترب منه أكثر ، وحاول الآن أن يزيحه عنه دون أن يتحدث ، ولكنه تحرك فجثم عليه حتى أصبح كل ثقله على صدره ، واذ هو جاثم عليه وهو لا يستطيع الحركة أو الكلام ، سمع المرأة تقول : « السيد نائم الآن • احملوا المحفة برفق وادخلوها الى الخيمة » •

ولم يستطع أن يتكلم كى يقول لها أن تجعله يرحل عنه ، وكان الآن جاثما بثقل أكبر حتى أنه يمنعه عن التنفس • وحينئذ ، وحين كان الصبيان يرفعان المحفة ، استقام الحال فجأة وانزاح العبء الذى كان جاثما فوق صدره •

كان الوقت نهارا ، والصباح قد طلع منذ فترة ، وسمع صوت الطائرة • وظهرت صغيرة جدا ثم دارت دورة عريضة وجرى الصبية وأوقدوا النيران ، مستخدمين الكيروسين ، كوموا الحشائش كملامات حتى أصبح هناك صفان كبيران فى كل ناحية من المكان الممهد ، واطارتها نسمة الصباح نحو المخيم • ودارت الطائرة دورتين أخريين ، خفيضة هذه المرة ، ثم انسابت هابطة واستقامت وهبطت فى سلاسة • ثم هاهو « كومبتون » العجوز يأتى ماشيا تجاهه مرتديا بنطالا عليه سترة من التويد وقبعة بنية من اللباد •

قال « كومبتون » : ما الأمر أيها الديك العجوز ؟

قال له : ساق معطوبة • هل لك فى بعض الفطور ؟

ـ شكرا • سأتناول بعض الشاى فحسب • لن أتمكن من اصطحاب السيدة • ليس هناك مكان الا لشخص واحد • ان

شاحنتك فى الطريق •

واتنحت الزوجة « بكومبتون » جانبا وطفقت تتحدث اليه •

وعاد « كومبتون » وقد زاد انشراحه •

قال : سندخلك اليها على مايرام • وسوف أعود لاصطحاب السيدة • والآن فانى أخشى أنه يتعين علينا الوقوف فى « أروشا » للتزود بالوقود • يحسن بنا أن نسرع •

ـ والشاى ؟

ـ لا يهم •

ورفع الصبية المحفة وحملوها حول الخيمات الخضراء وعبر الصخرة وخرجوا بها الى السهل وعلى طول صفوف العلامات التى كانت الآن تشتعل متوهجة وقد التهمت النار كل الحشائش ، والهواء يروح عليها ، الى أن وصلوا الى الطائرة الصغيرة • وكان من الصعب ادخاله اليها ، ولكن ما أن دخل حتى اضطجع على المقعد الجلدى ، وبرزت الساق المعطوبة من أحد جانبى المقعد حيث يجلس « كومبتون » وأدار « كومبتون » المحرك ودلف الى مكانه • ولوح مودعا زوجته والصبية • واذ تحول الضجيج الى الزفير المعهود ، مالا جانبا « وكومبتون » يراقب الحفر التى تحفرها الخنازير البرية فى الأرض ، وزأرت الطائرة وارتجت على طول الممر بين النيران وارتفعت مع آخر رجة • وشاهدهم جميعا يقفون أسفل منه ، يلوحون بأذرعتهم ، والمخيم الى جوار التل ، منبسط الآن ، فى حين تمتد آثار الحيوانات الآن فى سلاسة حتى

المستنقعات الجافة ، وكان ثمة حياة جديدة لم يرها أبدا من قبل •

والآن •• ظهور الحمر الوحشية المستديرة الصغيرة ، والتياتل ، نقاطا كبيرة الرأس تبدو وكأنها تتسلق اذ هى تتحرك فى خطوط طويلة تجاه السهل ، تتفرق الآن اذ الظل يرتفع فى اتجاههما ، فهى صغيرة الآن ، وحركتها ليس بها أى ركض ، والسهل منبسط على مشارف البصر ، رمادى أصفر الآن ، وأمامه ظهر «كومبتون» العجوز التويدى والقبعة البنية اللبادية • ثم أشرفا على أول التلال والتياتل تنساب مصعدة فوقها ، ثم حلقا فوق جبال ذات أعماق •

وحينئذ ، بدلا من الذهاب تجاه « أروشا » ، انحرفا يسارا ، فاستنتج أن فى الوقود بقية ، ورأى حين نظر تحته سحابة وردية اللون مليئة بالثقوب ، تتحرك فوق الأرض ، وفى الهواء ، كندف الثلج التى تنذر بعاصفة جليدية ، تأتى من لا مكان : وعرف أنها جحافل الجراد الذى يأتى من الجنوب • ثم أخذا يصعدان ويتجهان نحو الشرق فيما يبدو ، ثم أظلم الجو ودخلا فى عاصفة ، والمطر كثيف فكأنما يطيران فوق شلال ، ثم خرجا منها وأدار « كومبتون » رأسه وابتسم وأشار بيده • وهناك ، أمامه ، كان كل ما يستطيع أن يرى ، عريضا عرض الدنيا بحالها ، عظيما ، سامقا ، ناصع البياض فى الشمس الى درجة لا تصدق • القمة الرباعية لجبل « كليمنجارو » • وحينئذ عرف أنه ذاهب الى ذلك المكان •

***

وعند ذاك فحسب توقف الضبع عن الخوار فى الليل وبدأ يصدر

صوتا غريبا بشريا يقترب من البكاء • وسمعته المرآة وتحركت في قلق • ولم تستيقظ • ورأت نفسها في الحلم في بيتها في « لونج ايلاند » بولاية نيويورك ، في الليلة التي تسبق ظهور ابنتها على المسرح لأول مرة • وبطريقة ما ، كان والدها حاضرا ، وكان جافا جدا معها • ثم تعالى ضجيج الضبع الى درجة أيقظتها ، وللحظة لم تدر أين هي واتتابها خوف شديد ، ثم تناولت البطارية وسلطت ضوءها على المحفة الأخرى التي أدخلوها الى الخيمة بعد أن استغرق « هاري » في النوم • كان بوسعها أن ترى هيئته تحت حاجز الناموسية ، ولكن ساقه كانت بارزة على نحو ما ومعلقة على طرف المحفة • وكانت الضمادات قد سقطت كلها ولم يكن باستطاعتها أن تنظر اليها •

صاحت : ياغلام ! ياغلام ! ياغلام !

ثم قالت : « هاري » ، « هاري » !

ثم ارتفع صوتها صائحا : « هاري » ! أرجوك ! آه يا«هاري»؟

ولم يكن ثمة جواب • ولم يكن بوسعها أن تسمعه يتنفس •

وخارج الخيمة كان الضبع يطلق نفس الضجيج الغريب الذي أيقظها • ولكنها لم تسمعه لأن صوت دقات قلبها كان يعلو عليه •

« تمت »

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية : ٣٦٩٧ / ٨٦
الترقيم الدولي : ٢ - ٢٤١ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN